طائر بلا روح

طارق لحمادي

طائر بلا روح

وقصص أخرى

دار الكتاب المعاصر

بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب: **طائر بلا روح/ قصص**

الكاتب: طارق لحمادي

- الطبعة الثانية-

ردمك: 9789931882329

الإيداع القانوني :أكتوبر 2022

دار الكتاب المعاصر للنشر والتوزيع

دار الكتاب المعاصر

حي 600 مسكن أل.بي.بي، أحمد مدغري

الرويبة- الجزائر

الهاتف:

+213(0) 560439244

+213(0) 560439646

mdl.contemporain@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة

لدار الكتاب المعاصر

الأفكار الواردة في هذا الكتاب مصدرها المؤلف

ولا تتبناها بالضرورة دار الكتاب المعاصر

تنويه

قُدّمت هذه القصص القصيرة في طبعة أولى عن مؤسسة الرحاب الحديثة اللبنانية مناصفة مع شعر الشاعرة اللبنانية مريم الترك، وقد آثرتُ إعادة تقديم هذا الكتاب في طبعة ثانية مستقلّة -بموافقة من الشاعرة طبعا- .

وعليه، فإنّ عنوان الكتاب «طائر بلا روح» لا يسقط عن المجموعة الشعرية لصديقتي الشاعرة مريم الترك.

إهداء

إليك يحج هذا الطائر،

من لمستك تبدأ روحه ليطير..

طائر بلا روح

كوكو.. كوكو.. كوكو.. كوكو..

ثـم يختفـي حلقـةُ الضـارب في الحمـرة خلـف بـاب كـوة مغـرق في الصغـر، فيـما يصلنـي صـوت أخـي:

- الرابعة تمامًا..
- وكيف عرفت ذلك؟

يضحكُ ساخرًا ويقول:

- احسب عدد زقزقاته، الحاصل معك هو وقتُ الساعة.
- الواحـدة، الثانيـة، الثالثـة، الرابعـة، الخامسـة، السادسـة، الـ.....

ثـم يلتبـس عـليّ الأمـر، تضيـع حسـابات الوقـت بـين إرهـاف السـمع إلى شـدوه وملاحقـة عينـيّ لحركـة أصابعـي، وأفيـق عـلى ذلـك البـاب وهـو يُغيّـب خلفـه سـحر حلقـه، فيـما البنـدول يتأرجـحُ بإيقاعـه المنتظـم.

آمنـت بالحركـة قضـاء، وبشـدو حلقـه قـدرا، ولاحقتـه في مـرات كثـيرة بعينـيّ حـدّ التيـه، الغريـب أننـي أعـود إلى نقطـة الهـدوء فيـما يكفـر هـو بسـكونه، في مـرات سـمعتُ والـدي يسـأل:

– كاش ما عمّر واحد فيكم الساعة؟

يدور الصمت ويمضي إليها وهو يهدر :

– كيفاش تعملوا في غيابي؟

أنقـل عينـي إلى سـحنة والـدتي لأقـرأ أثـر العتـب، فـلا ألقـى عـلى وجهـها مـا ينـذر بالقلـق، يقـترب هـو مـن الوقـت، وبحركـة سـحرية يسـحب سلسـلتها المنتهيـة بثقـل قطعـة حديديـة في حجـم حبّـة صنوبـر.

***

هـي في قلـب الجـدار، مثبّتـة بمسـمار، بيـتٌ خشـبيٌ بحجـم صنـدوق صغـير، تُزَيَّـنُ شرفاتـه بـأوراق داليـة محفـورة في قلـب الخشـب.

***

– كيف تعرف الوقت يا سعيد؟

قـوةٌ سـحريةٌ تُطلـق حلقـه بسـحر الغنـاء، الزقزقـة بحسـاب ووالـدي يؤمـن أنّ لا حيـاة للطائـر خـارج قـوة يـده التـي تمتـدُ بحركتهـا وتسـحبُ السلسـلة..

– احسب عدد الزقزقات، الحاصل ..

أهمس له من وراء خوف :

– كيف؟

يمـوت جوابُـه في عينيـه، ووالـدي يرمقنـا بنظـرةِ تأنيـب، أهـربُ بعينـيّ إلى كتـابي وأرفـعُ صـوتي :

– تاء.. ثاء.. جيم.. حاء..

ننـامُ فيـما يسـتمرُ بندولهـا في حركتـه الدؤوبـة، أسـترقُ السـمع إلى دقاتـه مـن تحـت الغطـاء، أركـب التيـه أجنحـة انتظـار لسـحر الشـدو المحلّـق في قلـب الوقـت، كان يشـغلني عـن النـوم دونهـم، يُبقينـي يقظـا متحفّـزا متسـائلا عـن الـروح التـي يتمتـع بهـا في حـدود هـذا التدفـق المسـتمر ..

يد تهزّني وصوت يحتويني:

– قم لقد تأخّر الوقت...

أزيحُ الغطاء، أنفض عني كسل الصباح، وتسأله عينيّ :

– أين صرت؟

يجيء صوتها الدافئ:

– السابعة والربع، يجب أن تتهيأ..

البنـدولُ يراقـص ظلّـه عـلى الجـدار، وحلـق الطائـر يدفـع البـاب الصغـير بقـوة سـحرية، وأصابعـه تحتـوي الوقـت في ذلـك الجـذب المتتـالي، والتحـوّل ينشـأ ليرتق مـا يتمـزّق بـين الظـلال .

لم أعـد في حاجـة إلى أصابعـي، تلـك التـي تخذلنـي في ملاحقـة عـدّ مـرات شـدوه، ولم أسـأل سـعيد .. كيـف تعـرف ذلـك؟.. لكننـي بلعـت الغصّـة والدمـع يـراوغ الصـوت وأنـا أسـأله:

- كيف حدث ذلك؟

- سيكتفي الطبيب بالكي كأول مرحلة للعلاج.

- ألا يدعو ذلك للقلق؟

- الإصابة في الرقبة، قد يتجاوز الخطر..

وهـن صوتـه، وتـلاشى حلقـه وراء ضبـاب النسـيان، انطفأ الشـدو في أفـق الحيـاة، وتطـوّع سـعيد بفكّهـا بحثـا عـن الخلـل فيهـا، رأيـتُ مـن الطائـر منقـارا بـلا جسـد، وجـاء صـوت والدي يرمـم الصـدع:

- لا سبيل إلى إصلاحها..

قلتُ في سرّي:

- الطبيب طمأن أن لا خطر ...

وقال سعيد وأصابعه تحرك تروساً صغيراً:

- تحتاج إلى بعض التشحيم..

وقلت لوالدي :

- إنّ هـذا ليـس مرضـا، قـد يعـود إلى الغنـاء، قـد تحـدث المعجـزة.

وقال لي من وراء صدر متحشرج ونفس واهن:

- عاش بما يكفي يا ولدي..

بكيت وأنا أحضنُ يده في كفّي وألثمها، وبكيت وأنا أقول له:

– إنّ الطبيب طمأن سعيد..

وحـرّك سـعيد عجلـة أخـرى وسـقى جوعهـا ببعـض الزيـت، وعانـده الطائـر بصمتـه، وقلـت:

– حرّك البندول وأنت تلامس عجلته.

أجابني بخوف:

– لا أمل في أن يعود الطائر إلى الغناء.

وسألته بحرقة تكوي الأعماق:

– كيف سنعرف الوقت بعد اليوم؟

فبكى ...

***

هي في قلب الجدار، مثبّتة بمسمار، بيتٌ خشبيٌ بحجم صندوق صغير تُزَيّن شرفاته بأوراق دالية محفورة في قلب الخشب،

وهو لا يسبح إلا في مدارات الأحلام.

بقلم الرصاص

حين لم يجد القمر سألني:

- البارحة رأيته، كان بحجم كرتي.

- ما لونه؟

- مثل القطن.

- أبيض؟

- مثل الحليب.

الليلة يرزح الوقت بلا ضوء.

- بابا أين ذهب القمر؟

لم أعـرف بمـاذا أجيبـه، لم تكـن لي أدنى فكـرة عـن سرّ اختفـاء القمـر، قلّبـتُ رأسي في صفحـة السـماء، طالعتنـي لألأة النجـوم البعيـدة، احتضنتـه، مسـح خـدّه الصغـير بخـدّي وأرسـل البـصر حيـث حامـت نظـرتي.

- أتَذكر.. كان هناك يا بابا..

وأشار بإصبعه جهة غيمات متناطحة.

- هيه...

راقبته، لكن النوم لم يُمهلني.

- غالبك النّعاس يا يحيى.

لم يلحظ يحيى أُفول القمر، إذ اختفى حينما استغرق هو في نومه اللذيذ، كان متوسدا صدري يتنفس بهدوء ودعة، يتململ بين الفينة والأخرى، قدّرتُ بيني وبين نفسي أنّ التعب قد أخذ منه كل مأخذ، قدّرتُ أنّ أول يوم له في المدرسة قد أصابه بهذا العياء الشديد، الطريق فيما بين البيت والمدرسة طويلة ومنهكة وصامتة، سار إلى جواري معلّقا يده اليسرى بيدي، في يمناه محفظته، وهو يسأل:

- قلم الرصاص، ماذا يعني؟.. خمّن يا أبي..

- هو قلمٌ تكتبون به.

ضحك وهو يهزّ يدي..

- أنت مخطئ..

- فما هو؟..

- الستيلّو هو ما نكتب به، أما قلم الرّصاص فـ....

قاطعته بسرعة:

- خلاص عرفت.

عاد إلى ضحكته وهو يقول :

- فات الوقت، الكلام الأول ما يتحوّل..

***

كانـت ضحكـة يحيـى إيذانـا بهزيمتـي أنـا وتفوّقـه هـو، كأنّمـا كان يُثبـت لي أنّـه صـار يعـرف، يـدرك قيـم الأشـياء ومعانيهـا ودلالاتهـا في الوجـود، ضحكتـه تـشي في ظاهرهـا بعجـزي وقدرتـه، وأمـا باطنهـا فيصلنـي بحلقـات فرحـة لا تنطفـئ، أكاد أهمـس لنفـسي :

– صرت رجلاً يا يحيى..

أطـل عـلى سـحنة وجهـه وهـو يرسـمها بإغفـاءة المنهـك، تلـوح الـبراءة دفئـا يغالبنـي في ضمّـه إلى صـدري، أسرقُ قبلـة خفيفـة الوقـع مـن جبينـه وأبتسـم.

***

في السـماء البعيـدة، وحدهـا النجـوم تغمـز في خجـل، بعـض السـحاب يحجـب الرؤيـة، وبعـض الأحـرف عالقـة في أذني ...

– الستيلّو هو ما، أما قلم الرصاص فـ.....

نستغرق في المشي فيقول :

– اعترف بخسارتك..

– لم تمهلني كي أجيب..

– أخطأت..

– أعطني فرصة أخرى..

رفـض يحيـى أن يهبنـي فرصـة جـواب، كان قـد سرح في تفكـيره

وهـو إلى جـواري، دقّ الصمـت بيننـا، أحسسـت أنّـه يرسـم فهـما آخـر لنفسـه ...

***

القمـر لا يجـيء، لـو اسـتيقظ يحيـى فسـيعاود سـؤالي عنـه، أتحـيّن فرصـة ظهـوره بعـين فارغـة مـن الصـبر، سـحابات الخريـف تلتـفّ وتتكاثـر، يتكاثـر معهـا يـأسي فأنبـس :

– لو تمطر..

يتململ هـو بـين يـديّ، يحفـر برأسـه الصغـير في صـدري مكانـا يليـقُ بغفوتـه، أحلـم بالمطـر الـذي يبـدد السـحب فتتكشـف الـرؤى.. رآه البارحـة بحجـم كرتـه.

الليلة ...

حـين تململـتُ أفسـدتُ غفوتـه، فتـح نظـرات دهشـة عـلى وجهـي..

– أفقت؟

– هيه..

– أين ذهب القمر يا يحيى؟

نفض عنه خدر النعاس وهمس :

– تخيّل بابا، رسمته بقلم الرصاص...

السجن

لماذا جئتُ إلى هنا؟..

لا أعـرف السـبب، لكـن الـذي أعرفـه أنّي أحيـا داخـل هـذا السـجن الكبـير المترامـي الأطـراف، أحـدّق في الأفـق مـن وراء سـياج الأسـئلة. الـذي أعرفـه أيضـا أنّ التهمـة غـير معروفـة، فقـط أرزح في سـاعاتي الطويلـة المملـة تحـت ثقـل القيـود وعذاباتهـا، وأنتظـر ..

حـارسٌ واحـدٌ لا يكفـي لقمـع حرّيتـي، كـثرٌ هـم، يراقبـون بحذر شـديد، أقتعـدُ الكنبـة الخشـبية المزخرفـة في الليـل وأفكّـر، يتناوبـون في حراسـتي باليقظـة والحيطـة عينها.

اسـترقت السـمع مـرة إلى أحاديثهـم الطويلـة، عـن حادثـة رجـل يشـبهني حـاول الهـرب، فسـقط في التـلاشي..

ليلتهـا اشـتكيت مـن صـداع رهيـب، لم يكـن الرجـل في سـجنه وفقـط، بـل كان في سـجن داخـل السـجن، واسـتعدّ للهـرب مـن سـجنه الأخـير، خـرج ولم يعـد، فتشـوا عنـه بـكلاب البوليـس المدرّبـة عـلى اقتفـاء الأثـر، لكنـه غـادر بـلا أثـر ..

أقفُ تاركا الكنبة خلفي رانيا إلى الأفق المسيّج وأهمس:

– أليسـت شـواهد القبـور آثارنـا التـي تبقينـا داخـل مسـاحة

السـجن الكبـير..

صـداع تلـك الليلـة لا يـزال يلاحقنـي بكلابـه حتى هـذه اللحظة، أجـري في الأمكنـة المتاحـة بلاوعـي، أتعـثّر، أسـقط.. لا تنتشـلني يـد مـن سـقطتي، أحبـو مغمـض العينـين، والطريـق طويلة،حين أفتـحُ عينيّ تعـود الأسـيّجة متراقصـة مـن خـلال ضـوء الأفـق ...

ينتابني قلق مفاجئ، ويحرقني السؤال الطويل:

– كم من الوقت سأبقى؟

الحـراس يسـتمرون في مراقبتهـم، زيّهـم يختلـف باختـلاف أشـكالهم وأحجامهـم، أسـمع أصواتهـم، همسـاتهم، أحـسّ أزياءهـم وهـي تتنـوّع وتتلـوّن، لكنّـي لا أرى منهـم شـيئا.. هـل هي الخيـالات؟..

في مـرات كثـيرة عـزوت أمـر عـدم الرؤيـة لـكلاب الصـداع التـي تقتفـي أثـر رأسي، وفي مـرات أخـرى كنـت أنفـض رأسي حتـى أتبـيّن حـدود الواقـع مـن الوهـم، الحـقّ أنّ الأشـياء تتشـابه، لا حـدود، لا فواصـل، لا علامـات، كل شيء متداخـل في خلطـة سـحرية عجيبـة تتعبنـي حـدّ.. ا..لـ..مـ...و..ت

– أتعبه سجنه الأول، فطلب حرّيته في امرأة..

يقول حارسٌ يقفُ على بعد خطوات من زنزانتي ويضحك..

ينشغل قليلا بملامسة قفل قضبان الزنزانة ويهمس :

– ثمّ لقي سجنه الجديد، لكنه استطاع الفرار من سِجْنَيِّهِ...

يأتينـي صوتـه بـلا صـورة، أفـترض أنـه هنـاك، وأنـه بزيّـه

الغريـــب، وأنـــه لامـــس قفـــل زنزانتـــي، وأنـــه...

إلى الكنبـــة أعـــود، أســـتلقي عليهـــا مستســـلما ليـــديّ اليقظـــة والكوابيـــس وهـــما تصفعـــاني بـــلا رحمـــة، الســـاعات أيـــامٌ وشـــهورٌ وأعـــوامٌ...

من خلف القضبان أبعثُ صوتي منكسرا:

– متى ستفرجون عني؟...

يتضاحـــك الحـــراس فيـــما بينهـــم، يؤرجحـــون هراواتهـــم بـــين قبضـــات وراحـــات أكفّهـــم ولا يجيبـــوني. أفـــترض أن النـــوم سيدهســـهم جميعـــا وفي وقـــت واحـــد حتـــى تبـــدو طريقـــي ســـالكة للهـــرب..

المشـكلة أنّ الوعـي يرسـم صـورة أخـرى عنهـم، إنّهـم لا ينامـون إلا بتنـاوب مـدروس دقيـق..

أستســـلم لقلـــق متوحـــش عاصـــف، أرنـــو إلى جميـــع الجهـــات وأتقلّـــب في منفـــى خيـــالاتي وأعجـــن حكايتهـــم بصـــبر وأنـــاة، ثـــم أحـــاول أن أعـــرف كيـــف واتـــت الرجـــل القـــدرة عـــلى الإفـــلات مـــن قبضـــة ســـجنهم، وأمنّـــي القلـــب بحديـــث عنـــه وعـــن طريقـــة هروبـــه حتـــى أســـتطيع أن أنجـــو مـــن بـــين أيديهـــم..

***

خـلال الأيـام التـي تلـت، لم يكـن الرجـل الهـارب ضمـن معـرض أحاديثهـم، تنوّعـت ألسـنتهم بأحاديـث أخـرى، وكلاب الصـداع تلهـثُ وتنبـح داخـل رأسي الأعـزل، وأنـا أجـري لاهثـاً في الأمكنـة المتاحـة دون وعـي، اكتشـفتُ سـاعتها أنّ زنزانتـي تجـاور زنزانـة سـجينة جديـدة، أطـل مـن وراء القضبـان وأسـأل :

- من أنتِ؟..
- أحلام..

يقهقه حارس في الرواق، ويغمغم :

- آه وقع، سيدخل السجن ..

أكفـر بـه، بغمغمتـه، ألتصـق بالقضبـان أكـثر مـن ذي قبـل موجهـا صـوتي كي تنقلـه الريـح عـبر الـرواق :

- أحلام منذ متى وأنت هنا؟

يطفـئ الحـارس صوتهـا بهراوتـه، ويقـترب بخطواتـه مـن القضبـان وهـو يزبـد:

- منذ مجيئك أنت.

ينتابنـي الغضـب، فأدفـعُ بيـدي مـن وراء القضبـان وأسـحبه بـكل قـوّتي، رقبتـه تحـت رحمـة سـاعدي، ويـدي الأخـرى تبحـث عـن مفاتيـح الأقفـال..

يموت حارسٌ واحدٌ..

تحبـلُ أحـلام وأرفـض الاعـتراف بالجنـين، تدعـوني إلى سـجنها عـن طريـق القضـاء.

أتعنّتُ..

أعاندُ..

فأدخل دنيا جديدة من الحرّية...

العصافير والسلك

الفضـاءُ عينـه، زرقـةٌ لم تمـت، غـير أنهـا تضيـقُ هنـا وأنـا أواجههـا فيـما تتّسـع هنـاك حـين أرنـو إليهـا، لكـن النهاية مـوت.

أمـا البدايـة فقـد كان السـلك مغريـا، ذلـك الـذي يمنـح تجلّيـا أعمـق لكائناتـه الصغـيرة والجميلـة، وهـي تتخـذ منـه مـلاذا لراحـة أجسـادها.

– الشـجرةُ ملتفـةُ الأغصـان، أوراقهـا تحجـب الرؤيـة، يتنقّـل العصفـور بحرّيتـه الكاملـة دون أن يـترك لي فرصـة للتسـديد..

سألته:

– والسلك؟

قال :

– يعطيني مجالا أوضح..

***

كـما في كل طفولـة، يُغـوى الإحسـاس بابتـداع صنـوف مـن اللعـب يـصرّ هـو عـلى الصيـد، يقتطـعُ مـن شـجر الزيتـون غصنـا صغـيرا متشـعبا، ليشـكّل بـه أداة قتلـه.

يتربّـصُ، يلجـمُ الحركـة، ويحبـسُ النّفَـس، ويرنـو بهـدوء إلى الأغصـان، خطواتـه محـاذرة وفي عينيـه سـؤال المـوت.

تعيقُـه الأغصـانُ عـن التسـديد، فيتحـوّل إلى السـلك، يتراجـع، يختـار اللحظـة والفريسـة والتجـلّي، ويصعـقُ العصفـور .

مـن قلـب العشـب يلتقـطُ جثـة صغـيرة، ينفـخُ في ريشـها فيطـل فم الجـرح..

تسـتبدّ بـه نشـوةُ القتـل، بـلا هـدف يسـفحُ الـدم ويضحـك، يرمـي الجثـث الصغـيرة في عـراء الأمكنـة، ويضـجُّ بالحديـث :

– عصافيرُ السلك لا مجال لها للإفلات من ضربتي..

– لماذا لا نلعبُ لعبة أخرى؟..

يتنقـل بخطواتـه الصغـيرة الحـذرة، و(التيربـولات)[1] في يديـه وهـو يقـول:

– هاتِ لي ألعابا وسأكفّ عن الصيد..

يحـطّ طائـرٌ عـلى حـدود المـوت، فـوق السـلك يتجـلّى، يحفـر بمنقـاره في ريشـه، يحـرك رأسـهُ بقلـق، يتـبرّز، وينظـر في فضـاء أزرق، الفضـاء عينـه الـذي يضيـق بي هنـا وأنـا أتربّـص، ألجـمُ الحركـة، وأحبسُ النفـسَ، وأرنـو بهـدوء إلى صورتهـا.

على السلك ذاته نحطّ، نتخذ منه ملاذا لراحة أرواحنا ..

– الحياةُ محبطةٌ والواقعُ موجع.

---

1. اسم فرنسي لأداة صيد تصنع من أغصان الأشجار.

قلت لها:

– وهذا الحبّ الذي لا يصحو إلا وهما..

قالت:

– يعطيني أملا في الحياة..

العصافير تصطفُّ على امتداد السلك، وفي الليل تتحوّل هي إلى عصفورة على الطرف الآخر..

يضاءُ الفضاءُ الأزرق، يعود صاحبي بتيربولاته وهو ينقل موته محاذرا، حابسا أنفاسه، متربصا بقلقه ..

– انظر إليه، إنه يستمتع بوقفته على السلك .. همس لي..

فصرخت:

– لا تفعل.. لا تقتله..

مثل صعقة كهرباء، سريعة، محمومة، مراوغة.. كانت الضربة، وكان العصفورُ جثّة على الأرض..

نظرتُ إليها عبر الليل، وعيناي غارقتان في دموع كسيرة، وأذناي ترهفان السمع، وهي تسأل :

– هل مات؟..

عصافيرٌ كثيرةٌ تموتُ، تهربُ من فخاخ الأرض إلى آمال السلك، فتلقى حتفها ..

– هل سنموت نحن؟

يصرخ بي وهو يسدّد ضربته للعصفور:

– أعطني واقعا يليق بي وأعدك بأن لا نموت..

أرنـو إلى فضـاء أزرق يقطعـه سـلكٌ أسـود، يـتراءى لي العصفـورُ نقطـة سـوداء، نحـطّ عـلى السـلك عينـه، نتنفـس الخـوف ونتنهّـد..

الأرضُ تضيـق، جسـدي بـارد، يرتعـشُ ريـشُ العصفـور تحـت صفعـة يـد الريـح، قبـل موتـه، شقشـق، مسـح الأرض بنظرتـه الخائفـة..

يهمس لي وأنا أتبعه:

– لا تُثر حركة.

أتجمّـد في وجـه الفضـاء الأزرق الصغـير، ألاحـق تفاصيـل وجهها، وحركـة اهتـزازه على السـلك ..

الآن... وصعقه بلا رحمة..

***

كان الليـل بـاردا لأبعـد حـدّ حـين قتلـه، وكنـتُ أحتـضرُ مـن بـرد يحـفُّ سـنواتي الطويلـة، طـرت بجناحـين إلى السـلك بحثـا عـن الـدفء، جسـدي يرتعـش وجسـدها يتلـوّى، احتضنتنـي فاحتويتهـا، وغفونـا..

مثـل صعقـة كهربـاء، سريعـة، محمومـة، مراوغـة.. كانـت اليقظـة، وكان السـلكُ يهتـزّ، يتداعـى، يمتـدّ، ونحـن نـ...مـ...و..ت ..

أنا تحت الشجرة

اسـتمرت ليلـة كاملـة، كان كل شيء يدعـو للتقـزّز والغثيـان، اسـتمر الوقـت، الطيـف الـذي يرفـض أن يبرح الذاكـرة، في الظـلام، في المـكان القـصيّ، حيـث الريـح وحيـث العتمـة .

الزغاريـد هـي مـا يـروق الألسـنة، ألسـنة النسـاء، وحـواء تلـك التـي تتقلّـب كالريـح، تلـك التـي خافهـا ويخافهـا، شِـعره لـن يحـلّ مشـكلة الفقـر، شـعره سـحر، والطبـل يـدوّي... جميـل يـا ليـل، القسـوة تكـبر...

حـين كان الهـلالي يـوزّع أطبـاق العشـاء، سـكت الطبـل، توقّـف الزمـن، وتحلّـق النـاس كأسراب جـراد حـول محصـول زرع، وهنـاك زمـن قـصيّ، ومـكان قـصيّ، ومـن تحـت الشّـجرة كانـت العـين رقيبـة لا تنـام، وكان القلـب يُسـحقُ تحـت همـوم أوجـاع الليلـة..

شـدّ مـا تأخّـر طلـوع الفجـر، شـدّ مـا تعـب القلـب، شـدّ مـا بـكى بحرقـة، وحـين أفـاق تداعـى كل شيء.

– تعالي يا فلّة...

وقبـل اللقـاء، تهندمـت، تعطّـرت، الـروج عـلى الشـفتين، والجسـد المربـرب يهتـزّ، وفي الحديقـة اعترفـت بحـبّ كـوى القلـب.

– تعالي يا فلّة..

وجـاءت فاكتمـل عـرس السـماء، في الليـل التقيـا، رسـما طريقـا، زرعـا حديقـة، ربّيـا حمامـا، وحلـما...

– تعالي يا فلّة...

مـن تحـت الشـجرة، والظـلام، وصوتـه يضيـع حـين يتهـوّش الطبـل في يـد ناقـره، وصوتـه يمـوت حـين يرفـع المغنّـي عقيرتـه بالغنـاء، وصوتـه بـلا صـوت...

من تحت الشجرة، يبقى هو في زمن قصيّ، في مكان قصيّ...

– هل كانت جادّة؟..

هـو يسـأل، لكـن الظـلام لا يجيـب، الجدّيـة تمـوت مـع العائـد الجديـد، مـع فـارس ينتشـلها مـن الضيـاع، العائـد جـاء، كان هنـاك، هـو أيضـا في مـكان قـصيّ...

***

ابن عمّك تغرّب، عرف كيف يستثمر جهده ووقته..

وفلّـة جسـد ممتلـئ، والعائـد ربمـا يكـون حلـما مـا طالـه خيـال، ولكـن برغـم هـذا، فهـذا الخيـال الـذي لم يكتـب للعقـل أن يصدّقـه يومـا، هـا هـو يتجسّـد حقيقـة.. أليسـت والدتهـا تقـول؟:

– تغرّب.. عرف كيف يستثمر ..

والشـجرة وهـو، ذلـك الـذي يكتـب شـعرا رقيقـا، وزمنـه القـصيّ، ومكانـه الـذي لا يبرحـه ولقاءاتهـما، والمسـاءات التـي عاشـاها معـا وحكاياهـما عـن المسـتقبل، وبنـاء بيـت وحديقـة، ثـم، ثـم لمـاذا

وافقـت فتهـوّش الطبـل وحزنـت الشّـجرة وباتـت العـين رقيبـة لا تنـام؟

مـن الشـجرة ربمـا تولـد حكايـة، تحـدث معجـزة، أيّ معجـزة، تمنّـى وفي أمانيـه رجـاء، والرجـاء بـلا لـون ولا طعـم ولا رائحـة..

كان مدعـوّا فجـاء، بسرعـة الـبرق قـدّم هديتـه، فتحهـا العائـد، ذلـك الـذي يجلـس في بدلتـه البيضـاء، قـال وهـو يربّـت عـلى كتـف الرجـل الـذي تحـت الشـجرة:

– ساعة جميلة.

كنـتُ صامتـا، قلـتُ لـه بالصمـت: اقـرأ الوقـت، عليهـا عقـارب تتـكّ، تغـيّر كل شيء، الوضيـع يصـير قديسـا والقديـس يصـير وضيعـا، الأزهـار نـوع مـن الخيانـة لـو قدّمتهـا لـك في ليلـة كهـذه، الأزهـار كذبـة فظيعـة، أن أطـرح الـورد بـين يديـك فأنـا أحـرق قلبـي وأحرقـك وأحـرق قلبهـا، هـاك السـاعة، هـاك الوقـت، هـاك مـا حوّلنـي إلي عـين متيقظـة متحفّـزة تحـت ظـلال الشـجرة، ومـا حوّلـك إلى أمـير سـيقضم بأظافـره حبيبتـي، خـذ لا تخـف، الوقـت جميـل حتـى لـو كان ضـدّي.

– ساعة جميلة..

هـي فكـرة شـاذة، والضحـك سـيعلو في غيـابي لأجـل غبـائي، الشـاعر رقيـق فلِـمَ لا يهـدي أزهـارا؟

خفـتُ أن أقـول لهـم، خفـتُ أن أقـول لـه، لكننـي قلـتُ للشـجرة: إنّ الـورود تذبـل، يدهسـها الزمـن فتتحـوّل إلى كومـة شـوك، سـتتطاير أوراقهـا كـما تطايـرت الحقيقـة فصـارت أشـلاء.

***

ذهـب وقبـل رحلتـه جمعنـا المـاضي، صهرنـا في حميميـة لا يـزال القلـب يجـترّ صداهـا، وحـين عـاد فـرّق بيننـا صـوت السـاعة، جرحنـي صوتهـا، قفـزات عقربهـا وقفـزات الزغاريـد، والطبـل، وحكايـا الأزهـار، ونسـوة يذرعـن المـكان فيحلـن بينـي وبـين رؤيـة العائد.

ظللـتَ طيلـة سـنين وأنـتَ تكتـب، الشـعر ليـس حـلاّ لمشـكلة، لكنـه مركّـب لرؤيـة المشـكلة.

يتهـوّش الطبـل كـرة أخـرى، يرتفـع الصـوت فيخلـع عنـه إحسـاس الوحـدة، معهـم كان، وأحيانـا مـع الشـجرة، مع نفسـه... الحـيرة تبدأنـا مـن حيـث لا نعـي ومـن حيـث لا نـدرك.

- أنت لي مبدئي ومنتهاي.
- وقصائدي لن تكون لغير هذا الوجه الجميل.
- وقهوة الصباح سنشربها معا.

وعـاد الغريـب، ذلـك الـذي ترونـه هنـاك حبـة لؤلـؤ تحـت أضـواء ملوّنـة، فتراجـع صوتهـا وانقطـع خيـط اللقـاء وضـاع المبـدأ والمنتهـى.

كنـتُ أدرك أنّ الليلـة سـتطول، تمتـدّ، تصـير حبـلا لانهايـة لـه، وأنّ التهـوّش قـد تحـرّش بـكل شيء، الأضـواء ارتعشـت، الألسـنة زغاريدهـا عويـل في أذني، كـم تضيـق الدنيـا فتبـدو بـلا فرجـة ضـوء، بـلا بصيـص أمـل.

المدعوّون تدفقوا كالماء، وبدوا تحت الأضواء ذبابًا زاحفا...

مـن تحـت الشـجرة، تمتـد الـرؤى، في الليـل، في بحـر أحـزان لا

نهـائي، وذلـك العائـد.. هـل خطـر لي يومـا أنـه سـيغتصب منـي مـن أحببـت؟ ألم نكـن معـا؟ ألم نـسرح في شـعاب القريـة معـا؟ ألم نصطـد العصافـير معـا؟ ألم نتعـثّر معـا؟ خـلال ذلـك كانـت خربشـاتي لا تقنـع إحساسـه المتبلّـد.

لم أكتـب عـلى غـلاف السـاعة شـيئا، تركتـه كـما هـو مـا اسـتطعت تزييـف الحقيقـة..

– هاك الوقت.

وشظايا حزن تتدافع من روح كسيرة.

– مبروك.

وعـدتُ، وتحـت الشـجرة، وفي العتمـة، في قلـب الفـراغ تدفقـت مواجـع الإنسـان.

صدّقت كل شيء، وعدتُ إلى الشجرة...

– لماذا لا تهرب؟

تهوّش الطبل في يد حامله، تعانقت الأيدي في خبطات سريعة محدثة إيقاعا منتظما، تقاليدنا أكبر منها ومني ومن ذلك العائد..

وتساءلتُ:

– وما بيننا؟

وأجابت:

– ابتدعه الزمن وهو كفيل بسحقه.

- ولكنك..

- .....

***

جميـل أن أراك تحـت الشـجرة، الضـوء هنـاك في سـاحة العـرس، الحيـاة هنـاك صخـب وجـدّة ، فلّـة هنـاك عـروس وعريسـها ابـن عمّهـا، تغـرّب، عـرف كيـف يسـتثمر جهـده ووقتـه ويطلـع لهـا مـن عمـق المـاضي ليسـحق جسـدها بأنيـاب عطـشى.

وفلّـة كانـت هنـاك مـشروع قديـم حفرتـه خواطـر الطفولـة المتحفّـزة، والغريـب أني حكيـتُ لـه، أفضيـت بمـا خبّـأ القلـب، فضحـك بسـخرية مقيتـة.

ذلـك الـذي تحـت الضـوء، ذلـك الـذي اسـتثمر جهـده ووقتـه، هـو العائـد وهـو مـن قـوّض قـصر الأمـاني، وأبـات الدنيـا عارية جـرداء، فغرقـت حيـاتي في مـا يشـبه الانكسـار، هـل فشـل نـداء روحـي أمـام نـداء دمـه، فبـات هـو تحـت الضـوء وبـتُّ أنـا في العتمـة؟

الهلالي عاد يجمع الأطباق .

فلّة، لا أدري ما الذي يدور بخلدها الآن؟

العائد تحت الضوء.

أنا تحت الشجرة.

سماء آب ليست بالحزن الذي يكويني.

جميـل يـا ليـل، وحـين تتحـرّش الأشـياء ببعضهـا، اليـد باليـد

والضـوء بالضـوء والـكلام بالـكلام والغمـز بالغمـز، تـذوب أنـت في الظـلام، ويـدوّي الطبـل، لتستسـلم الحيـاة إلى مـا يشـبه المقاديـر، ويـدور الـرأس باحثًـا عـن فلتـة خـلاص، فـلا يلقـى غـير العائـد وعرسـه.

***

في الصبـاح شيء لا هـو بالـكلام ولا هـو بالهمـس ولا هـو بالنجـوى، صمـت هـو ذاك الـذي اتفقـت عليـه الأعـين، هـو ذاك الـذي اتفقـت عليـه القـرارات، هـو ذاك الـذي كـسر الأشـياء الجميلـة، هـم مـا قالـوا شـيئاً، لكـن صمتهـم حـكي كل شيء، ربمـا لأنهـم يخافـون ذلـك الـشيء الـذي أخفـوه، أخفتـه فطرتهـم وشـعورهم، ودارت أخلاقهـم حديـث المحظـور، لكـن برغمهـم، برغـم صمتهـم، وبرغـم اللامبـالاة التـي راح الهـلالي يرقّـع تفاصيلهـا عـلى وجهـه، برغـم كل ذلك، أحسسـنا همسـاً، لسـنا نـدري مـن أيـن، وكيـف، ولمـاذا، ولا مـا هـو؟ وراح ذلـك الهمـس الصامـت الخائـف، يرتفـع شـيئا فشـيئا في سـماء آب.

– فلّة ..

من يصدّق؟!...

إلى أن يتهوّش الطبل كرة أخرى..

أنا تحت الشّجرة ..

أوراق وقت مضى

كريمة...

ضـاع مـن العمـر مـا ضـاع، وتحـرك وقـع الوقـت في عنـف وصخـب، السـنوات المتراكمـة انقضـت سـاحبة وراءهـا تفاصيـل كثـيرة، في الوجـه ذبـول والنظـرة تـشي بقلـق عاصـف، لم يبـق مـن الأغنيـة الإنجليزيـةwe're no strangers to love «لسـنا غربـاء عـن الحـبّ» إلا صـدى يسـمعه القلـب في سـاعات وحدتـه .

أمـا الحـاضر فجـسر سـيدي راشـد [1]، وهـو يحملنـا عـن قعـر الهـوّة، ويرسـم تفاصيـل لقـاء صدفـة يختلـط فيهـا الحـب بالإشـفاق..

تعانقت الأيدي، وانفجر إحساس سُجِنَ لمدة عشرة أعوام..

- كيف حالك؟..
- كما ترى ..
- من كان يظن أنّ الصمت سيقطع بيننا كل هذه الأعوام.
- كل الأصدقاء القدامى مازالوا يتواصلون معي ..

وانفجـرت بحديـث طوفـاني، حدّثتنـي عـن سـنوات المعهـد،

1. جسر من جسور قسنطينة

حدّثتني عن عمّار وجمال الدين وليلى وأشياء أخرى، وطال وقوفنا على الجسر، فاقترحتُ عليها المضي إلى مقهى دنيا الطرائف، مقهى الماضي، والمكان الذي شهد ولادة حبّها الذي جرفته ريح التهوّر والعناد فيما بعد.

وشى وجهها بعجز بحّار عن معاندة اللجة، وغرقت عيناها في دمعات لفظها القلب واستدعى رأسها ذكريات الماضي البعيد، وسال لسانها بكلمات عاندت مكابرة الماضي:

– ألم تلتق به؟

– جمعني به الهاتف، وقد عرفتُ أنه تزوّج ورزق بصبية.

قالت بتنهّد :

– حتى أنا سمعتُ هذا الخبر ..

– ألم تتزوّجي بعد؟..

– تقدّم لطلب يدي أربعة شبّان لكني رفضتهم، أنت تعرف جنوني...

– أمازلتِ تحبّينه؟..

– لا أعرف، لم ألقِ مثل هذا السؤال على روحي، ولكن الإنسان يقف حيال ذكرياته موقف التقديس، لم أحبّه يوما بقدر ما أحببتُ تلك الحقبة التي توسّطت طفولتي وشبابي، لعلّه كان جزءا من تلك الحلقة.

– فلم النّدم إذن؟..

– لم أندم على هجره ..

قاطعتها أقول :

– لعلّك نادمة على تلك الحقبة من حياتنا، حتى أنا راودني ذلك الإحساس كلما استدعيتُ وجه الماضي لأقلّب صفحاته في رأسي.

– لعلّك الوحيد الذي استرحت إلى فهمه، لم تكن صديقاً فحسب ولكنك كنت شيئاً رائعاً يخطر في حياتي، غير أني عتبتُ عليك بعد سنة من تخرّجنا...

سألتُ بلهفة :

– لم؟..

– لم تصارحني بما انطوت عليه سريرتك.

قلت وأنا أسبح في دهشتي وخجلي :

– خفت أن ألقى المصير الذي لقيه صابر.. لكن قولي لي كيف اكتشفتِ حقيقة ذلك الشعور؟

– أنت تعرف الأصدقاء، في لقائي بهم نخوض في كل شيء حتى جاء ذكرك في سياق الحديث، فتطوعوا بكشف المخبوء من حياة الماضي ..

– تمنيّتُ أن لا يحدث هذا ..

– أتخشى الحبّ؟

– بتّ أكرهه.

– أمّا أنا فمازلت أردّد أغنية الماضي، لسنا غرباء عن الحبّ.

– ما قيمة الكلمات في شعور ميّت؟

– أفهـم مـن هـذا أنـه لم يبـق في قلبـك أدنى شيء مـن عمـر المـاضي.

بمـاذا أجيبهـا؟.. انحـصر العمـر عـن العجـز والصمـت، وقويـت الرغبـة في التشـبّث بالحكمـة، فـات زمـان الحـبّ، الأجـدر أن تدنـدن نحـن غربـاء عـن الحـبّ.

عادت تقول نافضة الصمت عن مجلسنا:

– مـا أروع ذلـك المـاضي، يبـدو كـما لـو أنـه حلـم مـسروق مـن ليلـة شـتاء ...

– ولكن الأحلام نافلة لن تقضي أمرا.

– المحروم من نعمة الواقع يتعزّى بأحلامه.

ثم أضافت بشيء من الثّقة:

– بـتُّ لا أخـشى المسـتقبل، العمـل، الأصدقـاء، القـراءة، ألا تعتقـد أنّ مثـل هـذه الأمـور سـتبعد الإنسـان عـن الخـوف؟

قلتُ :

– لا أعتقـد ذلـك، فالإنسـان الـذي يفتقـد نصفـه الآخـر لا يخـاف لحظتـه الراهنـة بقـدر خوفـه مـن تأمـل وجـه المسـتقبل.

ثم أضفتُ كمن أمسك بخيط الحكمة في يده:

– إنّ شـعور الخـوف لا ينشـأ مـن الفعـل بقـدر مـا ينشـأ مـن ردة الفعـل.

ابتسمت وهي تقول:

– إنها فلسفتك..

تخايـل لعينـيّ وجـه المـاضي، عنفـوان الشـباب، والطيـش المتدفّـق، ورحيـق الحـبّ المسـكوب عـلى عتبـة بـاب قلبهـا وهـي عنّـا لاهيـة، فتسـاءلتُ بحرقـة الأعـماق.. تُـرى في أيّ ركـن مـا خبـأ الزمـن كل تلـك الفـوضى؟

الليل

في شـحوب الليـل، والدنيـا شـتاء، والوحـل يُغـرق الأرجـل، لاح الضـوء واهنـا غريبـا لكنـه عـاد فأفـل بعـد حـين، نبـح كلـبٌ.. مـرت دقائـق سريعـة، فـلاح الضـوء عينـه وبقـي المـدة عينهـا، ثـم عـاد فأفـل ثانيـة .

البيـت مـن طـوب، ينـام أعـلى الهضبـة، تحـفّ بـه أشـجار المشـمش، سـاحته مرتفعـة ببعـض القصديـر الـذي يصـدر صريـرا كلـما مسّـته يـد الريـح، وأهلـه مـن الطبقـة الدنيـا يقاومـون المـوت بسـعيهم الدائـب في الحيـاة، ويذوقـون مـن مـرّ الدنيـا مـا قـدّر اللـه لهـم أن يذوقـوا، فالوالـد يشـتغل في عملـين يؤمّـن بهـما قـوت عائلتـه، وعضلاته هـي رأسـماله يسـتعملها لحمـل الأنابيـب في شركـة الميـاه التـي يعمـل بهـا، حتـى إذا انتهـى وجـدت الفـأس والجـاروف عـلى كتفـه وهـو منطلـق لتـوّه إلى موعـد حفـر، والوالـدة راضيـة بهـذا النظـام القـاسي، ومتجهـة إلى اللـه بدعواتهـا صبـاح مسـاء، وأمـا الأبنـاء فقـد جمعتهـم المـدارس لطلـب العلـم حتـى يخرجـوا مـن بـؤرة الفاقـة التـي يعانونها.

حيـاة مليئـة بالصخـب والضجيـج حتـى إذا مـا جـاء الليـل وهبّـت عـلى المـكان رائحـة السـكون وطوّقـت البيـت جحافـل الظلمـة،

لاح الضـوء واهنـا مرتعشـا، شـعاع يصـدر مـن لمبـة مثبّتـة في رأس عمـود خشـبي يتطـاول حتـى تتقـزّم أشـجار المشـمش أمامـه، وكلـب ينبـح وقصديـر يـصرّ وشـعاع يسـقط حزمـا عـلى أغصـان الأشـجار، في كل خيـط شـعاعيّ رعشـة وتـوق وتحـدّ، والليـل يغـرق في سـكونه، فـلا يصـل أذنـك غـير مزيـج مـن أصـوات ثـلاث، نبـاح كلـب وصريـر قصديـر ولهـاث ضـوء .

السـماء بـدت في تلـك الليلـة كـما لـو أنهـا أعلنـت حدادهـا عـلى أهـل الأرض، غشـتها سـحبٌ سـودُ وتزيّنـت أطرافهـا ببعـض النجـوم البعيـدة، والزقـاق المـؤدّي إلى أعـلى الهضبـة راقـد سـاكن لا حركـة فيـه، والبيـت أسـلم روحـه لسـكرة الكـرى، الـكل تهيّـأ للنـوم، عـدا ذلـك الضـوء الـذي يـشرق ثـم يأفـل بـين كل حـين وحـين ..

انتـشر السـؤال في مسـاحة الـرأس كالحريـق، عـاد كلـب إلى نباحـه الخامـل، تحرّكـت الريـح، رقصـت أغصـان الأشـجار، اللمبـة في رأس العمـود الخشـبي مـا زالـت مزهـوة بنورهـا، لقـد امتـد الضـوء هـذه المـرة لفـترة أطـول، تراجـع النبـاح، تراجعـت هبّـات الريـح، وألقـت السـماء بمـا تجمّـع في قلبهـا مـن مطـر، وعـادت الأرض تغـرق في مزيـد مـن وحلهـا.

***

طرقنـا ليسـت معبّـدة، مازالـت ترابيـة بسـيطة كبسـاطة قلـوب أهلهـا، وقريتنـا لم تنـل مـن المدنيّـة غـير أعمـدة الكهربـاء، والكهربـاء سـحر أشـعل اللمبـات، ليتحـدّى قنديـل الزيـت، ويتحـدّاني في هـذه الليلـة بالـذات حـين أطـل مـن رأس العمـود خائفـا وجـلا ..

مـر الوقـت، لم يحـدث أيّ شيء يدعـو للقلـق، لكـن السـؤال بات يحرقنـي، لمـاذا يلـوح الضـوء، ثـم يعـود فينطفـئ؟.. هـل نـسي أهـل بيـت الهضبـة قفـل اللمبـة مفتوحـا حـين انقطـع تيـار الكهربـاء؟!..

بـات السـؤال معلّقـا في رأسي، وباتـت زخّـات المطـر تتلاحـق تباعـا إلى الأرض، تطلّعـتُ إلى السـاعة كان الوقـت يتحـرك كغليـم .

لم يكـن ثمّـة أحـد غـيري، كنـت متلفّعـا بكنـزة صوفيّـة وأمسـح المـكان بنظـرتي، مـازال الضـوء يشـعّ متحدّيـا بـرودة ينايـر، ومـازال السـكون يلقـي بثقلـه عـلى الحـيّ، ولحـدّ السـاعة لم يداخلنـي شـكّ في أنّ وراء الضـوء يـد آدميـة عابثـة، ومـا جـدوى أن تمتـدّ يـد في مثـل هـذا الوقـت وفي مثـل هـذا الـبرد لتقـوم بهـذا العبـث؟.. شيء واحـد أقلقنـي بـل بـدأ يدعـوني للقلـق أكـثر مـن أي وقـت مـضى، هـو شـعاع الضـوء، إنهـا خيـوط ترتعـش وتتحـدّى، خيـوط تحمـل أكـثر مـن لغـة وتنبـس بأكـثر مـن خطـاب، خيـوط ترتسـم لي في هـذا الليـل البهيـم بأشـكال مفزعـة .

الوقـت يتحـرك، زادت حـدّة اضطـرابي وقلقـي، وزاد الضـوء وحشـةً وارتعاشـاً، عـاد كلـب إلى نباحـه المتواصـل، بـدا لي الليـل وكأنـه يشـارف عـلي نهايتـه، فتذكّـرت غـدي ومسـؤوليّاتي الكثـيرة، وأنـا لم يغمـض لي جفـن، نسـيتُ أو قـل تناسـيت الضـوء، ورحـت أسرح بخاطـري في حـوادث مشـتّتة، فجـأة توقّـف عقـلي عـن التفكـير وجمـد جسـدي بـلا حـراك وتوقّفـت معـه أنفـاسي وترنّحـت السـيجارة بـين أنامـلي كأنهـا تتعمّـد فضحـي، سـحبتُ منهـا نفسـا أخـيرا وأعدمتهـا تحـت حـذائي، لقـد بـدأتُ أكتشـف سرّ الضـوء..

***

كان الزقـاق هادئـا لا حركـة فيـه، وكان غبـش الظـلام يلـفّ جسـده، وبـدا لي شـبح يتحـرّك بحركـة بطيئـة، ويحـاذر أن تصطـدم قدمـاه بإنـاء قصديـري أو حجـرة فيُحـدثُ ضجيجـا يفضـح أمـره.

الـبرد يشـعرني برعشـة متصلـة، والشـبح يتقـدم في حـذر شـديد، والضّـوء المنسـاب مـن رأس اللمبـة بـدأ في تفصيلـه شـيئا فشـيئا ، لم يبـق ثمّـة شـكّ في أنّ الضّـوء إنمـا كان لينـذر هـذا الشـبح المتقـدّم بخطـاه الوئيـدة نحـو رأس الزقـاق، بـل إنـه كان إشـارة سرّ تمـارس بـين مُرسـل ومرسـل إليـه .

إشـارات سريعـة تتوالـد في عمـق الليـل، وأهـل قريتـي نيـام لا يدركـون مصابهـم، دورهـم نائمـة، بهائمهـم نائمـة وحتـى كلابهـم الكسـالى سرعـان مـا ألقـت عـن كاهلهـا أمـر الحراسـة وركنـت إلى سـبات شـتويّ عميـق، و لم يبـت سـاهرا غـير هـذا الضـوء هنـاك في رأس الهضبـة معلنـا تمـرّده واسـتهتاره، كأنمـا ليشـهد الأعـين عـلى جرأتـه وشـذه عـن القاعـدة، إذ هـو الضـوء الوحيـد الـذي تجـرّأ، فتقـدّم منـه شـبح يمـشي وتبـدّى مـن خـلال خيوطـه بوجـه حليـق وشـعر أسـود، وتبـدّت هـي أيضـا بعـد أن رمـت طوبـة، وحمحمـت كمهـرة مـن وراء بـاب البيـت..

وصـدر الصريـر، فنبـح كلـب، وامتـدت يـد ناحيـة قفـل النـور، فتراجعـت خيوطـه خائفـة وجلـة، وفي العتمـة وقـع المحظـور وتـراءى خيـال جسـدين، وامتـدّ اللّهـاث...

التجربة

في الحديقــة أزهــار، وأعشــاش عصافــير، وروث بهائــم، ودنيــا طويلــة عريضــة مــن الآمــال...

حبــا أول الأمــر، تعــثّر بأشــياء الحديقــة، فبــدت لــه مجــرد كائنـات تقـف في وجـه رغبتـه، احتوتـه الأيـدي بعـد ذلـك، فلـم يـدر.. هـل حرمتـه التجربـة، أم خافـت عليـه عـثرات الحديقـة؟.. لكنـه يحـبّ اللّعـب، ويـوّد بفيـض حـرارة الغريـزة أن يغـرس جسـده في الـتراب، ويلهـو بـروث البهائـم..

وضربـت أكـثر مـن يـد عـلى يـده، فاقـترح البـكاء لغـة للتحـرّر ومـضى في حبـوه غـير آبـه بالأصـوات التـي امتـدت خلفـه، غـير آبـه بالأيـدي التـي زجرتـه وتوعّدتـه.

***

في الحديقة أزهار، وأعشاش عصافير، وروث بهائم...

وصـوت حلـو متناغـم يطلـع مـن جهـة السـياج، ورغبـة جامحـة ملحّـة تدفعـه أن يمـضي، لم يعـد يتعـثّر بأشـياء الحديقـة، هـذه صخـرة سـتتجنّبها رجـلاه، وهـذا غصـن سـتطرحه يـداه ليتفـادى الـرأس ضربـة

متوقّعـة، هنـا تقـف الأشـياء بأسـمائها، وتتلـوّن بخصائصهـا فتطفـئ لاوعـي الإنسـان فيـه، وهاهنـا فقـط سـيتحرّر باتجـاه حـلاوة الصـوت المهـزوز عـلى جناحـيّ رنّـة الطفولـة ورحيـق الأنوثـة، سـيمضي حامـلا أتعابــه وأحلامــه كأيّ رجــل يريــد لأتعابــه أن تتبخّــر ولأحلامــه أن تتجسّــد...

* * *

في الحديقة أزهار، وأعشاش عصافير...

وهـو مـاض، لم تكـن الأيـدي ممسـكة بـه، ولم تزجـره الألسـنة، لكـن أعـين الرقبـاء مـن الأهـل كانـت تلقـي إليـه همسـاتها:

- كبر الطفل...
- لا يجب أن يقرب سياج الحديقة...

وهــو لم يــدر، هــل ترجــو الأعــين حرمانــه التجربــة، أم أنهــا تخـاف عليـه عـثرات الحيـاة . ولكنـه يحـبّ، ويـودّ بحـرارة القلـب أن يغـرس بـذور حبّـه في قلبهـا، ويـزوّج روحـه لروحهـا...

وضربــت أكــثر مــن يــد عــلى تصرّفــه، فاقــترح الصمــت لغــة للتهـوّر، ومـضى في حبّـه، غـير آبـه بالهمـس الـذي امتـد خلفـه، غـير آبـه بالأعـين التـي توعّدتـه، فثمّـة صـوت حلـو، صغـير، يجـيء مخـدرًا برغبــة الأنوثــة مــن خلــف الســياج وحــرارة نجــواه لا تقــاوم، وهــو خمّــن.. تلعــب وحدهــا، تلعــب مــع فراشــات الــروض؟..

وقتــل كل إحســاس فيــه تجــاه الأهــل وقــال: إن لا ملمــس

لأيديهـم ولا صـوت لألسـنتهم ولا همـس لأعينهـم، فـازدادت الرغبـة في المـضيّ، وازداد الصـوت تناغـما..

* * *

في الحديقة أزهار...

تراجـع الصـوت، لم يعـد يحـسّ إلا حفيفـاً متقطّعـاً تُصـدره الريـح، مـات الصـوت الحلـو الصغـير، وماتـت معـه تخمينـات المـاضي.. الريـح تلعـب بـأوراق الشـجر ..

* * *

في الحديقة...

كان يجلـس عـلى كـرسيّ خشـبيّ، ويطالـع جريـدة الصبـاح حـين جـاءه صـوت زوجتـه:

- الولد يحبو قربك احذر أن يتعثر بشيء...

امتدت يداه.

أمسك بالطفل.

فكّر عميقا..

- هل سيحرمه التجربة؟!

خيانة

التفّت الحقيقة حول رقبته كالشّرك...

قاوم بعناد...

نفد الصبر والعناد...

رِجْلٌ على السلّم، وأخرى على أرض الدهشة..

قالت من خلف الباب الموارب:

- الشيطان كان أقوى..
- أنتِ الشّيطان..
- هو من أوقعني ..
- لا يقع الإنسان إلا إذا أراد..

كانت عارية، احتمى هو بالغضب...

ذهب السلّم، وبقيت أرض الدهشة ..

تطلّع إلى القمر الفيروزي..

متنهّداً قال:

- رحمتك أيّتها السماء...

حفلة الريح

المكتـب، الجـدران، والسـاعة وهـي تتـكّ عـلى الجـدار متحديّـة الصمـت، وثمّـة عـبر وجـه النافـذة كانـت الريـح تشـتعل، أمـا الهـروب فهـو أنسـب فكـرة...

حـين تعـرّف إليـك هـذا الكـرسيّ كُنـتَ في نحـو الخامسـة والثلاثـين مـن العمر، اسـتخففتَ الفكـرة يومهـا، بـدت لـك كـسراب تمتـد إليـه يـدا كسرهـا اليـأس، ولكـن الكـرسيّ تحـوّل مـع الوقـت إلى حقيقـة، فـصرتَ الآمـر النّاهـي، تحسّسـته ذات صبـاح، قـوّة سـلطانك منـه، ووخـز الضمـير هـو كل مـا بقـي منـك.

هـذا المكتـب، وهـذه الجـدران، وقبـل أن يقفـز الكـرسيّ إلى حضنـك..

كان الماضي قد امتصّ الرغبة منك..

المكي أحالوه على التقاعد ...

طلبتَ قهوة..

امتدت يد السكرتيرة البضّة برزمة أوراق ..

الخسـارة الكبـيرة في أن تخـون الزمـن، وكل دقيقـة، وكل لحظـة كنـتَ تجاهــد كي تصــل، كي تثبــت لمجاهــل نفســك أنــك الأقــوى، وربحــتَ الزمــن فأعطــاك كرســيا دوّارا.

قهوة ثانية..

عـبر وجـه النافـذة كان وجـه الريـح، وعـلى أصابعـك كان العـدّ.. عـشرة أعـوام أخـرى سـقطت مـن حسـاب العمـر، وبأناملـك النحيلـة أمضيـت مئـات القـرارات ووافقـت عـلى عـشرات الاسـتقالات، أصحابهـا طلقـوا فكـرة البقـاء عـلى خيـط هـذا الروتـين الـذي تعانيـه..

وبقيت وحدك...

برد فنجان القهوة ...

***

قبـل الثانيـة عـشرة تطلّعـتُ إلي الطريـق عـبر هـذه النافـذة، كانـت الحيـاة تـزرع سـعادتها عـلى الوجـوه، طابـور مـن السـيارات والبـشر، زخـمٌ مـن الحركـة، لوحـة الحيـاة وهي تحـت عينيّ اليائسـتين، تنهّـدتُ مـن الأعـماق ذوّبـتُ حرمـان سـنوات طويلـة، ووحـدي عـدتُ أدراجـي إلي المشـجب، وأنـا أهبـط الدرجـات، أحكمـتُ قفـل المعطـف حـول رقبتـي.

السـاعة تتـك، أراهـن عـلى ذلـك، في مكتبـي تركتهـا، والثانيـة عـشرة، وطابـور السـيارات تحـرك، وزمـلاء وزميـلات العمـل تأبطـوا أذرع المنتظريـن، وخلـف مقـود سـيارتي وقبـل أن أديـر الموتـور، تذكّرتُ

فجأة ودون مقدمات الحفلة التي أقيمت على شرف تقاعد المكّي، أبناءه، زوجته، دموعه وهي تختفي وراء نظارته الطبية السميكة وهو يشدّ على يدي بيده الواهنة، وواجهتُ الفراغ فتضاءل حجم الكرسيّ، وواجهتُ مرآة سيارتي العاكسة فلقيتُ خيانتي للزمن وهي ترتسم أثلاما بيضاء على شعري...

حينما داهمت فوديّ تلكك الشعيرات البيضاء، راحت أختي تطاردها بملقط برونزي كانت تخفيه بين أشياء حقيبتها، البياض كان أقوى، راح يزحف، المسؤولية، العمل، العمال، والساعة تطاردني فيمتدّ فارق العمر بيني وبين السكرتيرة، فيصير هروبي أمرا مسلما به، ومسؤولية جديرة بالحمل ...

أدركت أنّ الخسارة والفشل في خيانة الساعة، حركة البندول، وإمضاء الأوراق، ويد السكرتيرة، أصابعها خواتم، أظافرها طلاء وردي، جسدها ربيع.

فكرة المغامرة فات أوانها، حريق العمر أكبر، تمدّد كل شيء.. انكسر الملقط، الحقيقة لا تموت بالتمويه تظل شيئا يكسرنا من الداخل..

وأنا أتمطّى في إعياء، بريد الصباح، التقارير، الطلبات، وملقط شقيقتي ما عاد يقوى، والمتعاملون مقابلاتهم وهي تثير التقزّز، وبندول الساعة وهو يسقط حركته في وجه الريح:

– قولي لهم المدير غائب.

- لكن؟

- قولي إني غائب.

- وأوراق البضاعة التي سيحضر إليها؟

- أنا غير موجود.

وقبل أن تغلق الباب لتغادر، طلبتُ قهوة ...

***

الجـدران، العمـى، والخريـف حـين يحتضـن الدنيـا بـين يديـه، ومـع الكـرسيّ كانـت هـذه الخيانـة، لا بيـت،لا زوجـة، لا أبنـاء.. المـكّي بمقـام والـدي..

- متى نفرح بك يا ولدي؟..

وفرحتـي الكـبرى هنـا بـين هـذه الجـدران، وأنـا أحـرّك حيـاة هـذه الشركـة ويـوم أحيـل المـكّي عـلى التقاعـد، كنـت كمـن مسّـته لسـعة سـيجارة، وحـين انتهـت مراسـيم حفلـة التكريـم لسـت أدري مـا الـذي سـاقني إلى مـرآة التواليـت... أنامـلي سرحـت عـلي الوجنتـين، الغضـون، صمـت السـنوات، السـيّد المديـر، المتعاملـون، الكـرسيّ، فحيـح التّلفـون..

وفي المـرآة، في المـرآة ذاتهـا التـي كنـتُ أتطلّـع إليهـا، كان وجـه السـكرتيرة يواجهنـي.

- أنا غير موجود.

بالرغـم مـن كذبتـي عـلى السـكرتيرة والمتعاملـين فالسـاعة تتـكّ، تـأبى أن تتوقّـف، هـل يقـدّر لهـذا الكـرسيّ أن يسـحقها، فكـرة أخـرى فـات أوانهـا.

ومـن وجـه النافـذة أهـرب، وعـبر وجـه الريـح يتناثـر المكتـب، تتداعـى الجـدران، يتهشّـم الكـرسيّ، ويصلنـي صـوت السـكرتيرة:

– سيّدي المدير أتشرّف بحضورك حفل زفافي.

وهناك خلفي كان عقرب الساعة يشير إلى الموت..

العنكبوت

عناكـب تتأرجـح في فضـاء الغرفـة، تتأرجـح نظـرتي معهـا، أدرك أنـه لا وقـت لـديّ كي أكـون معـك، أنـتِ أيضا لا تملكـين قـدرة المواجهة، فقـط إحساسـك الـذي لم أفهمـه بعـد، لأننـي لم أدرك عوالمـك الغريبـة، أعـرف أنـكِ سـتصرفين وجهـك عنّـي لأمـور حياتـك الكثـيرة.

اتفقنـا إذن عـلى رؤيتـي في هـذه الغرفـة البـاردة، جدرانهـا ملتحمـة بالبيـاض، بعـض الأثـاث الرخيـص يحتضنـه الغبـار، قـدرتي عـلى صناعـة الفـراغ مدهشـة، لذلـك عزفـتُ عـن تشـويه الجـدران بـأيّ مـا مـن شـأنه أن يـسرق مجـرى بـصري خـارج عـالم الغرفـة.

أتذكّـر يـا فاطمـة أنّي حينـما جئـتُ هـذه الغرفـة، خلعـتُ بعـض اللوحـات التـي لم أعـد أذكرهـا الآن، تركـتُ الجـدران عاريـة، ميّتـة.. من المرعـب أن أنظـر بـين الفينـة والأخـرى إلى لوحـة فيهـا خيـول تجـري، مـن المقـرف والممـل أيضـا أن أرى جريـان ذلـك الـوادي المحمـول عـلى لوحـة تهـرّأ إطارهـا وبهـت، الجريـان الـذي أراه صباحـاً أعـاود رؤيتـه مسـاء ثـم ليـلا، في الأعـوام الأولى التـي سـكنتُ فيهـا هـذه الغرفـة، لم أكـن قـد تعرّفـتُ إليـك بعـد، لذلـك كنـتُ أصـبر عـلى ملاحقـة جريـان الـوادي داخـل اللوحـة محـاولا أن أصنـع لمائـه هديـرا داخـل رأسي.

في الأيام التي تلت انقضضتُ على اللوحة وطوّحتها أرضا..

أنـا لا أسـتطيع الجـزم المطلـق بأنـه كانـت هنـاك في يـوم مـا لوحـة بالشـكل الـذي أوحيـتُ لـك بـه، لعلّنـي افترضـت وجودهـا، ولعلّهـا كانـت واقعـا فعليـا.. لا أسـتطيع الآن التأكّيـد عـلى وجودهـا مـن عدمـه، لأني لا أسـتطيع أن أكـون معـك إلا بالقـدر الـذي أحاولـه مـع أعماقـك في الإحسـاس بهـذا القلـق الـذي يوحّدنـا والـذي انتقـل إلى العيـش معـي يـوم أن سـكنتُ هـذه الغرفـة...

في الخـارج أمطـرت، شـكّل المـاء أخاديـدا، بـدت الأرض موحلـة، مـن النافـذة الصغـيرة يـتراءى عـري العـالم، محاولـة للغوايـة ليـس إلا، الحـقّ أننـي أشـبهك في عـدم قـدرتي عـلى مواجهـة المطـر وهـو يهمـي، حبّاتـه تتزحلـق في خطـوط غـير متناسـقة عـلى زجـاج النافـذة، الريـح العاصفـة لا تـترك لهـا فرصـة اختيـار كاملـة للتزحلـق بطريقة شـاقولية..

أتفـرّج عـلى حبّـات المطـر، كـما أتفـرّج عـلى أشـياء كثـيرة في الحيـاة، أفتقـد القـدرة عـلى تحريـك حبّـة المطـر وفـق مـا أريـد، لكننـي أملـك مـن الجـرأة مـا يجعـل هـذه الجـدران عاريـة حـدّ المـوت، وحـين زرتِنِـي في ذلـك المسـاء الشـتوي مـن شـهور خلـت، رحـت تتأملـين الغرفـة، توقّـف بـصرك عـلى ركنهـا الأول عنـد السـقف...

– نسيج عنكبوت، ألا تقوى على إزالته؟!

– ولم أفعل؟

– حتى تبدو غرفتك... غرفتنا.. نظيفة...

لا أســتطيع أن أخــون روحــي، لا أســتطيع أن أكــذب عــلى روحــي بغيابهــا المفتعــل، حضــور العناكــب يذكّــرني دائمــا بالغيــاب، يمنحنــي وعيــا خالصــا بحقيقــة الفقــد الــذي يحــاصرني، حــين أســتيقظ أرى عنكبوتــا صغيــرا قــد بــدأ تجربــة حضــوره.. مــع المســاء حــين أعــودُ يكــون هــو قــد فــرغ مــن بنــاء نســيجه ليبــدأ في التأرجــح.

كل مــا أملكــه الآن هــو تأمــل الــلاشيء، عــري متصــل الحلقــات، وزجــاج نافــذة يعطينــي بعــض الصــور الباهتــة، وبعــد قليــل ســيزحف الظــلام إذّاك تتحــوّل شــجيرات الــسرو عنــد طــرف الحائــط الخارجــي إلى أشــباح، وحــين أمــد البــصر إلى مــا وراءه تســتكمل عينــاي رؤيــة التــلال وقــد باتــت أشــباحًا أيضــا، أقتــل عمــر الوقــت بمــا تبقّــى مــن تجربــة الذكــرى التــي بــات يحملنــي إليهــا العنكبــوت ، أتصــوّر الخــواء والفقــد، أتصــوّر حيــاتي وهــي تُــسْرَقُ بوجــوده، لا أملــك القــدرة عــلى تمزيــق نســيجه فأتســلّى بتحــرّش المطــر بــالأرض...

اليــأس مــن زياراتــك ولــد مــن حلقــات غيابــك المتصلــة، اليــأس مــن حضــور رائحتــك يمــلؤني خوفــا، العناكــب تتوالــد، لا أبــرح الغرفــة، قــرّرتُ أن أبقــى هكــذا أراقــب نســيج خيوطهــا الواهيــة وهــي ترتســم في زوايــا الغرفــة وســقفها، وحــين يمــلؤني الضجــر أتحــوّل إلى النافــذة وأحــرك إبهامــي مــن وراء زجاجهــا محــاولا رســم طريــق حبّــات المطــر وهــي تتحــرّك بإيقــاع غريــب.. لا تفلــح المحاولــة، حبّــة المطــر لا تتحــرّك كــما أريــد لهــا أنــا .

العنكبوتة الكبيرة ولدت عناكب صغيرة ..

– متى تزوّجت؟..

لا يهـمّ، المهـمّ أنهـا معـي، العناكـب الصغـيرة سـتضيف إلى عمـر الصمـت عمـرا آخـر، سـتجعلني أعيـش الغيـاب المسـتمر، أفكّـر في طريقـة خروجـي لإحضـار بعـض الأكل تحـت وابـل المطـر الـذي لا يتوقّـف، أفكـر مـاذا لـو اسـتمرّ المطـر لمـدة طويلـة؟.. كيـف سـتصير الحيـاة بعدهـا؟.. ولـو توالـدت العناكـب بسرعـة الكهربـاء أو الضـوء، كيـف سـتصير غرفتـي؟.. مـاذا لـو أطلّـت فاطمـة الآن، وتطوّعـت كعادة النسـاء بمـد يدهـا إلى مكنسـتي القديمـة ودمـرت خيـوط العنكبـوت؟

***

أثنـاء عـودتي مـن إحضـار بعـض الأكل، دفعـتُ بـاب الغرفـة بقدمـي وأنـا أحتضـن كيـس عشـائي بيـديّ..

– لماذا تركت غرفتك تنتهي إلى هذا الضياع ؟..

في الزوايا والسقف لا أثر لخيط واحد.

– سأمسحُ الغبار العالق بالأثاث.

أورق الغضـب شـجراً في أعصـابي، رميـتُ مـا بيـدي ودفعتهـا بقلقـي وخـوفي عـلى سريـري وأنـا اصرخ:

– كان عليك أن لا تفعلي.. كان عليك أن لا تخرّبي خيوطها...

***

وأنـا أرافقهـا في الصبـاح إلى حيـث تسـتقلّ بـاص العـودة، سـألتني:

- لم اخترت السرير أداة لإطفاء غضبك؟...

قلتُ وأنا أُغْرِقُ وجهي في بسمة خجل:

- حتى لا تعود العناكب للعيش معي...

ورقة

الورقـة الرابحـة اختفـت في لمـح البـصر، أخفتهـا اليـد الموشـومة، الماهـرة، الماكـرة، بـــسرعة كهربـاء مراوغـة صاعقـة فقـدتُ رؤيتهـا، وتخايـل لي أنهـا هـي.. تلـك الراقـدة في المنتصـف، وسـبّابته تتحـرّك بـين الورقـات الثـلاث، وتضعنـي في احتـمالات ثلاثـة، وتشـوّشني يزيـد، والوقـت محـدود لا سـبيل إلى الانتظـار أكـثر، فثمّـة أكـثر مـن مقامـر ينتظـر دوره، كـما أنتظـر.. فقـد أعيـد الكـرة لـو شـئتُ ..

والورقـة كانـت هنـا، بـكل فيضهـا، بـكل رسـمها، بـكل ألوانهـا، بـكل زهوهـا، نظـر في عينـيّ وقـال:

– نبدأ؟..

أومـأتُ بـرأسي أن نعـم، فبـدأ دون أن يمهلنـي فاصـل وقـت أرتّـب فيـه وضعيـة رؤيتـي، وألمّ بتفاصيـل الحركـة الكاملـة.. لكنـي رأيـت يمنـاه تـروح ويـسراه تغـدو، لأكـثر مـن مـرة، والأوراق تحتهـما تتقافـز.. ثـلاث ورقـات، اتفقنـا عـلى واحـدة منهـن، لتكـون الهـدف والمعنـى والربـح والمقامـرة، ومـا دونهـا لا يهمّنـا في شيء، ولاحقـتُ حركـة يـده اليمنـى، حاولـتُ أن أركّـز عليهـا بالقـدر الـذي أسـتطيعه،

مـن دون أن أطـرق جفنـا أو أخـسر ثانيـة، وللحظـة تحـوّل الفعـل في داخـلي إلى نـوع مـن التحـدي، نسـيتُ فكـرة الربـح والخسـارة، نسـيتُ فعـل المقامـرة، ووجدتنـي أهمـس لروحـي..

تـرى هـل تتفـوق حركـة اليـد وسرعتهـا عـلى مراقبـة العـين، وكيـف يفلـح اللصـوص في مراوغـة الأعـين إلى الجيـوب والمحافـظ الصغـيرة والحقائـب؟ وكيـف تسـهو العـين في فاصـل مـن زمـن، فتسـتغله اليـد في يقظـة وخفـة ليقـع محظـور السرقـة، ويترتّـب في فاصـل السـهو واليقظـة هـذا جـان وضحيـة، سـارق ومـسروق، رابـح وخـاسر، فـرح وحزيـن، ومـا علاقـة اللصـوص بالحـواة؟ فأيـدي الحـواة باليقظـة والمـراس والخفّـة ذاتـه، وأعيننـا الصغـيرة بقدر السـهو، كجيوب السراويـل، تسـقط في فـخّ المراوغـة والخـداع، فتتبـدّى المناديـل حمائـم، وباقـات الأزهـار أرانـب، كيـف تفشـل حـدّة البـصر في كشـف الـسرّ والسّرعـة والخفّـة؟ بـل كيـف تمحـي هـذه الخفّـة أثـر كذبتهـا وتـزرع اليقـين في قلـب الشـكّ، فنصـير نـرى في الورقـة الخـاسرة ربحنـا..

وقال:

- هيه أين هي؟..

دهسـني صوتـه كعجـلات قطـار سريـع، عـاد الوعـي بالواقـع الـذي سـلّمته يـدي، ووجدتنـي في طـرف قـصيّ مـن محطـة سـيارات الأجـرة منحنيًـا أفتـح نظـراتي عـلى آخرهـا، وصـكّ سـمعي أكـثر مـن صـوت..

- اِلْعَبْ ..

تعمّـق إحسـاسي بالدهشـة والضيـاع وعـدم التركيز، اسـتجمعت مـا بقـي مـن راسـب يقظـة وانتبـاه في عمقـي، وفي خـلال ذلـك حاولـت أن أمثـل دور الواثـق مـن نفسـه، حتـى أخـدع وعـي كل مـن يحيـط بي، وسرح رأسي في تفكـير معقّـد متداخـل مربـك، لا قبـل لأحـد بفهمـه، ثـم رفعـت عينـيّ أواجهـه وأنـا أنبس:

- على مهلك ..

سـبّابته مـا تـزال تتحـرّك بـين الورقـات الثـلاث، وقـد طرحهـنّ أرضـاً، وتسـألني اختيـارا واحـدا مـن ثلاثـة، واختيـاري لا تحـدّده غـير حرّيتـي، وحرّيتـي منقوصـة المعرفـة، فقـد أخفـق البـصر، في سـهو مـا مـن عينـيّ أخفـق، وفي يقظـة مـا مـن يـده أخفـق، مثلـما أخفـق مـن قبـلي وسـيُخفق مـن بعـدي الكثـير مـن النـاس..

- هيه .. اِلْعَبْ ..

ولعبـتُ، مـددت سـبّابتي بتردّدهـا، وفي عينـي نظـرة تشـظت بـين اليقـين والشـكّ، وعـلى جبينـي طفحـت حبّـات عـرق، وبـدأت أضيّـق المسـافة بـين الاحتـمالات، وأنسـف في لحظـة واحـدة قـدر الانتظـار الـذي طـال .. وأنـا أقـول لـه:

- هذه ..

القاتل

اســتقل التاكــسي، تدافعــت الــرؤى، وانكــسر وجــه الزمــن في لحظـة طـاش فيهـا العقـل، عليـه أن يؤمـن، ثمّـة مـا يقـوده إلى المـوت، ولكـن؟.. ألم يكـن موتهـا فظيعـا؟

تجاوبـت النغـمات، راديـو السـيارة عـلى الهامـش، وفي أعماقـه تردّد إيقاعـاً سـخيفاً بحجـم مـرارة الحيـاة نفسـها، سـأقول لـه:

– سيدي الضابط لم أكن أقصد...

وهي قالت له:

– لم أكن أقصد..

كانت تفتش عن سعادته ليس إلا...

في غفلـة الحيـاة نسـج عنكبـوت القـدر تعاريـش أغنيـة حلـوة، رفضهـا بـادئ الأمـر، اعتبرهـا نـزوة امـرأة، غـير أنّ اللعبـة اسـتمرت، تكاثـرت الحكايـات، صـارت كطوفـان يحجـب عـن العقـل قيـاس مسـافات الوعـي، اسـتحكم مـرض الرفـض ولاح المـوت في الأشـياء، فأطلـت الحيـاة الرغيـدة، طـارت الفراشـات معانقـة نـدى الصباحـات

الجديـدة، وانفتـح القلـب عـلى لغـة المجهـول السـحرية.. تواطـأت اللحظـات...

ها هما معا...

أنشـد الفـراغ لحـن الفـرح، جلسـا غـير متباعديـن، كانت أشـجار الحديقـة تلقـي عليهـما الظـلال، سرحـت يـده عـلى شـعرها، لم تعـد اللغـة ممكنـة، صدحـت الأنفـاس، رفّ طائـر الحنـين وأعلنـت الحيـاة عـن فلتـة سـحرها...

فابتسم خائفا على نفسه ...

وابتسمت هازئة بجرحها ...

***

كان التاكـسي يندفـع في منعرجـات الطريـق الجبليـة، أغنتـه أفـكاره عـن ملاحقـة مشـاهد الخريـف، لم يعـد ثمّـة بصيـص أمـل ينشـده.. لا مـاض للـروح ولا حـاضر تجسّـده لحظـة عاقلـة، اشـتعل الفنـاء في الأشـياء، انقـرض الأمـس وانقرضـت معـه حكايـات الرحيـق المقـدس، ولكنـه يحـسّ لأنفاسـها خـدرا يعـاود ولادتـه مـن جديـد، ويبعـده بقـدر الخـوف والفـرح عـن السـقوط في هـوة اللامبـالاة...

ربّاه كأن الدنيا تضيق، كأن الماضي سوط يرفض عتقي...

ثمّة أمل...

كان قد ترجّل، دفع أجرة السائق ودلف البار...

– سيّدي الضابط لم أفعل

الـكأس مـلأى، الخريـف يطـل بوجـه شـاحب عابـس مـن النافـذة...

– لم كان الرجل الآخر؟

ولم تجبه الكأس، وفي فضاء البار نذير شؤم يسرح.

لحظـة التوافـق مـع الـروح بـدأت تتـم، قطـع المـكان تـولّي هاربـة، وبـلا وقـت أحـسّ أنـه معهـا، كـم كانـت لذيـذة الـروح، دخلتـه بـلا مـبرّر وودعتـه بـلا مـبرّر، وفي غـمار التجربـة كان مسـتكنا للأحداث، عبثـت بالـروح، جرّبـت فعـل الحـبّ...

– لم تنجح التجربة...

ذهـب الوعـي، وداعـا للحكمـة في قلـب الصفـاء والتـلاشي، قـرع ناقـوس الأعـماق، رفرفـت فراشـات المـاضي بأجسـاد شـياطين وأجنحـة ملائكـة .

كنـت صريحـة معـك، حدثتـك عـن الرجـل الآخـر في حيـاتي، أغريتنـي، أغرتنـي روحـك ،أغرتنـي أناملـك، عرّتنـي، لم تمنحنـي غـير طعـم الأخيّلـة.. حرائـق مـن الأخيّلـة...

هكـذا قالـت، وفي الرجـل الآخـر وجـدت أرض الواقـع، وأنـا لـن أسـتطيع أن أكـون أكـثر مـما كنـت.

يتداعى صوتها:

- لن تستطيع أن تتخطّى حدود دورك.

هكذا اختارت، غير أنّ الاختيار جرحني..

- سيدي الضابط لم...

الزجاجـات تسـمعني، الـكأس تنـزف، الخريـف يبـكي، ريـح بـاردة تجـوب الأزقـة، لم تكـن لي قـدرة عـلى تغيـير أوضـاع الأشـياء، كانـت الأمـور تتعقّـد أكـثر.

الطريـق الجبليـة تتعقّـد أكـثر، هـل يقـوى الإنسـان عـلى حيـاة بـلا غرائـز؟ هـل باسـتطاعة كائـن كالإنسـان أن ينقـذ الـروح مـن مـادة سـخيفة اسـمها الجسـد؟

هكـذا كنـتُ أفكّـر في فـوضى الـكأس، ومـن عمقـه كانـت تنـاور هـي، الحيـاة أن يعيـش الإنسـان حياتـه وكفـى...

مارسـت الحـبّ بصوفيـة عميقـة، كانـت الدمـوع شـارة معلّقـة عـلى حـالات السـعار التـي تنتابهـا، ترنّـح الحـبّ بيننـا كقـارب صيّـاد عجـوز في مسـتنقع مغلـق الجهـات، وعـلى هـدي مـن منـارة العقـل ترجيّتهـا أن تبلـغ ضفـة الحقيقـة.

- لا أريد أن أخسركَ
- أنتِ للرجل الآخر
- وأنتَ لي

تصوّرتُـه كذبـة مزروعـة في سـماء الوهـم، حسـبتُ أنّ مسـاحة القلـب لا تحـوي إلّا كائنـا واحـدا...

عـاش الحـبّ بيننـا غريبـا، عقلّتـه لقـاءات الليـالي المسـعورة.. أحـار معهـا أيّتهـا الـكأس، كيـف يختـار الإنسـان وينتـصر للحظـة ولشـكل ولحيـاة؟

في العمـل داهمنـي تهـاون مـرّ، وفي غرفتـي حيـث تتمطّـى حـدود الوقـت في قلبـي، أجـترّ عذابـات اليـأس والحرمـان، وعدتنـي بسـعادة فـما عرفـت لهـا طعـما ولا لونـا، ومـن يـأسي منهـا كنـتُ أكفـر بفكـرة زواجـي.

لسـتُ آسـفا بـأيّ حـال، الـكأس تغرينـي أكـثر، لم أعـد رهينـة لأحـد، ذابـت الأشـياء، انصهـرت الحـوادث، تحـرّرتُ بالقـدر الـذي أتـاح لي مواجهـة الضابـط النحيـف وهـو يرشـق أصفـاده في معصمـي ويـصرخ بي:

– قَتَلْتَهَا أيّها الوحش؟!

في البحث عنها

ترامـى إليـه ضجيـج الشـارع، فتـح يقظتـه عـلى هـذه الأصـوات المتلاطمـة، سـأل بصـوت فاتـر:

– كم الساعة؟..

في فـوضى الحيـاة وحركتهـا بقيـت الأم علامـة الوجـود الوحيدة في دنيـاه والأصـل لمـدارات أحاسيسـه، يتجـلّى حضورهـا في كل شيء يعطـي لحياتـه معنـى، ويسـتمدّ منهـا طاقـة الصـبر كلـما ألمّ بـه خطـب، ويسـتعين بهـا عـلى الحيـاة حتـى في أدقّ التّفاصيـل، لذلـك فقـد وجـد نفسـه يكـرّر سـؤاله معتمـدا عـلى مـا توفـر لديـه مـن يقظـة أعمـق باعـدت بينـه وبـين فتـور النعـاس:

– كم الساعة أمّاه؟

ولم يجئـه صوتهـا، فعـاد يسـبح في أمـواج أحلام عريضـة، تخايلت لعينيـه أشـواق المـاضي، تناطحـت الذكريـات، تلاحقـت الوجـوه تباعـا، علاقـات لم تنضـج إلى الحـدّ الـذي يتيـح لـه أن يؤمـن بهـا، بـذور شـعور بالحـبّ هاجمتـه عواصـف الواقـع فـولّى إلى هامـش قـصي مـن الـروح، تواريـخ تشـهد عـلى أفـراح ولّـت وأحـزان انقضـت، مناسـبات تعيـد لـه ملامـح وجـوه كاد يسـحقها النسـيان.

هـل يعتـب عـلى العمـر أم عـلى الذاكـرة؟ وهـل بقـي في أعماقـه صـوت يدعـو للحيـاة بعـد أن تجـاوز الأربعـين بشـهور؟ وهـل يعنـي له الوقـت شـيئا؟ هـو الـذي يلـحّ في سـؤال والـدة جـفّ عودهـا وثقـل سـمعها وضعـف بصرهـا وبقيـت تعانـد الوهـن وتكفـر بالاستسـلام، وتقـدم عـلى قضـاء شـؤون بيتهـا بـروح متحفّـزة ..

للحظـة أدرك أن لا معنـى للوقـت، وأنّ اليـوم يمتـدّ بطولـه ولا علاقـة تكـدّر الصفـو، ولا موعـد يحـدّ مـن انطـلاق، فليعـش يومـه هـذا بالصدفـة العميـاء التـي سـتختار لـه خطواتـه، وتحفّـز لهـذه الأحاسـيس المغريـة، فاندفـع خارجًـا مـن تحـت الغطـاء .

وجـاءت والدتـه بدأبهـا في التنظيـم، وانهمكـت في ترتيـب كنبتـه وهـي تقـول:

- تنقصنا بعض الخضر..
- قد أتأخّر .
- لا يهمّ ..

ثم استدركت مذكّرة إيّاه:

- لكنك في عطلة.

قال وهو يعاود اكتشاف مساحة الكنبة التي تبدّت صغيرة:

- أعرف يا أمّي.. لكني لا أضمن عودتي باكرا.

هـزّت رأسـها ومضـت، فيـما بقـي هـو يرتـدي ثيابـه ويلاحـق بنظـره اكتشـافه الجديـد ..

تبـدت الكنبـة الأرابيسـك صغـيرة، مسـاحة راحـة أو سـهاد أو مـوت، بالـكاد تسـع جسـده فقـط، يلتهـم الفـراغ حوافّهـا، وهـذا غطـاؤه الـذي تتفنّـن والدتـه في طيّـه يبـدو خشـنا قديمـا، لكـن مسـحة نظافـة باديـة عليـه، غـير هـذا فـلا شيء يغـري، ولا نعومـة تفتـح أكـمام حاجـات الجسـد كي يعانـق سـحر الحيـاة في تراتيلهـا المخمليّـة .

وتخيّـل يومـه طويـلا فارغـا،ولا مسـؤولية إلا شراء بعـض الخـضر، وبعدهـا تسـكّعا لا يملـك لـه مـبرّرا، وملاحقـات بريئـة تتمـلّى فيهـا العـين مـن الحسـن مـا تتمـلّى، ولم يغفـل القهـر الـذي سـوف يرافقـه في حلّـه وترحالـه.

ووجـد نفسـه في قلـب الشـارع يمـشي طاويـا سرّه في أعماقـه، مرهفـا السـمع إلى نبـاح داخـلي عقيـم، وعـرج عـلى مقهـى البسـفور هاربـا مـن وحدتـه بادئـا يومـه بفنجـان قهـوة، جلـس كـما تعـوّد أن يجلـس أيـام شـبابه الأول، عـاد بعينيـه إلى خضـم الحيـاة في عنفوانهـا مـن وراء زجـاج المقهـى الكبـير، حيـث تلاحقـت الأجسـاد كالمـوج الهـادر، فتحفّـزت كل حواسـه في يقظـة غـير مسـبوقة، وتـاه البـصر في أكـثر مـن اتجـاه، غـير أن شـيئا مـا كان يشـدّه إلى إيمـان الاقتنـاع بـأنّ كلّ مـا يتحـرّك أمامـه ليـس مـن حقّـه، ومادامـت اليـد قصـيرة والعـين بصـيرة، فليطلـق البـصر وليحبـس اليـد مغلولـة في حاجاتهـا الدنيـا.

ولكـن اليـوم طويـل، والفـراغ يتسـيّد، والأحـلام فسـيحة، والكنبة ضيّقـة لا تسـعه إلا هـو، وهـو يتسـكّع ومحـلاّت الموبيليـا تعـرض أسرّتها الفسـيحة وأفرشـتها الناعمـة المخمليّـة بألـوان زاهيـة وأشـكال مختلفـة،

واليـوم طويـل فاغـرا فـاه مـن جـوع، والأحـلام لا تسـدّ رمقـه عـلى كبرهـا، وهـو يقـف غـير بعيـد باحثـا بأصابـع أمانيـه في هـذه الألبسـة النسـائية الداخليـة الشـفّافة، مفتونـا بنعومتهـا ودفئهـا وغوايـات ألوانهـا، واليـوم يمتـدّ، فيمـضي باتجـاه روت فرانـس[1] منتشـيا بروائـح الطفولـة، مقلّبًـا بـصره بـين ألعـاب الصغـار، والحركـة حولـه لا تهـدأ، وامـرأة تنحنـي منتقيـة لولدهـا قطـارا كهربائيـا، وهـو ينحنـي منتقيـا لأحلامـه دميـة، ويقـف مطـاردا أكـثر مـن سراب، سـائرا في أكـثر مـن اتجـاه، متملّيـا أكـثر مـن قـوام، قارعـا في النهايـة بابـا واحـدا، تفتـح شراعتـه عـن وجـه والـدة مؤنبـة:

– تأخّرتَ كثيرا يا بنيّ..

يضع الدمية بين يديها ويقول متنهدا:

– كنت أبحثُ عنها.

1. اسم لأحد شوارع قسنطينة.

الجناح والباب

السعادة روح عصفور أبيض، يستهتر فوق أضلعي هذا المساء، المرأة الدافئة المترعة بفيض حنان تقول:

– قهوتك ستكون من صنع يدي..

يبتسم القلب، وترفرف في سماواتي فراشة بديعة الألوان، فأنسى عمر الشقاء القديم، وأفتح أبواب المساء على رائحتها وصوتها.

– روحكَ شهد من عسل..

تنطفئ المسافة بيننا ويشتعل تيار سرّي لا نفهمه، نشرب قهوتنا بصمت ونهيم في دنيا الله..

حين يقتربُ موعد الرحيل، تسألني بثقة:

– هل عدتَ لي إلى الأرض، كي يتسنّى لك الخروج من الباب؟

الشبح والجثّة

مـا سـأرويه لكـم، هـو مـا لم أره، ولم أفهمـه، ومـع ذلـك فهـو كل الحقيقـة، وهـو أيضـا حـيرتي الكاملـة وسـؤالي الضـال، وهـو الحيـاة حين تتخفّـى في سرّيتهـا العميقـة، ولا تُبقِـي لنـا منهـا غـير شـكلها الأعمـى، وحـين تكـفّ الحيـاة عـن رؤيتنـا، فنحـن أيضـا لا نراهـا، إننـا نبادلهـا شـعورًا بشـعور، وعمـى بعمـى، ونخطـو غـير حافلـين بمـا تحملـه إلينـا مـن لامبـالاة وإعـراض، فتبـدو أيدينـا فارغـة مـن كل شيء، كأننـا لم نولـد، ولم نعـش، ولم نتـزوج، ولم ننجـب، كأنّ الأمـر سـحريّ فـارغ، وهـم تعقبـه خضّـة الصحـو، فتتكشّـف الهشاشـة بوجههـا الذابـل، ونحـاول أن نـروي مـا يُوجعنـا، فـلا نـراه ولا نفهمـه، ولكنّـا نقـول بالصمـت لأنفسـنا.. إنّ الأمـر حقيقـي إلى أبعـد مـدى، وإنّ معنـى صدقنـا لا يكتمـل إلا إذا رأينـا هـذا الـشيء وفهمنـاه وقلنـاه بـكل جوارحنـا.

ولكنـي لا أدري كيـف؟ كيـف سـأروي لكـم مـا خـسرتُ رؤيتـه، ومـا ضيّعـتُ فهمـه، ومـا فشـلتُ في فضـح سرّه، وهـوـ يقينـا ـ لا يـدري كيـف نفـذ إلى ذلـك الاكتشـاف في فـوضى حواسـه تلـك الليلـة، حـدث ذلـك حينـما امتـدّ تبوّلـه، وطالـت وقفتـه، وجـال بالبـصر في الفضـاء الرحيـب..

سألني إن كُنتُ رأيت ما رأى..

وهو رأى شيئا ما..

وأنا سألته بدافع الخوف من رجال الشرطة أو الإرهابيين:

- ماذا رأيت؟..

فاستدار نحوي وهو يسوّي سحّاب بنطاله، ويواصل :

- ثمّة شيء..

- أين رأيتَ هذا؟..

راح يقـترب، جلـس، احتـوى زجاجـة أخـرى بـين يديـه، أدار قفلهـا المعـدني في خفّـة وهـو يقـول:

- ليس مهمّا أن تعرف..

مـلأني الضحـك، ونشـوة صافيـة لذيـذة، وخـدر بـدأ يعصـف بجسـدي، فقلـت بينـي وبـين نفـسي: لا شيء يسـتحقّ، فهـي أضغـاث هذيـان وآثـار سـكر تتجـلّى مـن ثقـل لسـانه وشرود نظراتـه، وبحكـم خـبرتي فقـد قـدّرتُ أنّ هـذه العـدوى سـتنتقل إليّ في دم الوقـت، كـما سـوف أخضـع للتجربـة ذاتهـا، وسـأرى مـا يـراه، وأنعـم بهـذا الكشـف الـذي تجـلّى لـه..

أرهفـت طاقـة سـمعي، لأتـشرّب صفـاء الخـلاء الممتـدّ، وأحتـوي سـكون الليـل بمـا ملكـت مـن قـوة التأهـب، اسـتعنت عـلى كل ذلـك بسـحر النشـوة التـي راحـت تـدبّ فيّ بأرجلهـا الخفيفـة الحانيـة، وارتميـت في بحـر خيـالاتي وأحلامـي..

سكت كل شيء، الصمت الأعمى الفارغ من أقل معنى..

كنا نشرب وفقط..

نـشرب ونقـول بصمتنـا: نحـن هنـا، في الخـلاء، في السـكون، في مـا قـدِرَ عـلى رؤيتـه هـو، وعجـزتُ عـن فضّـه أنـا، ثـم هـزّ هـذا الصمـت نبـاح كلـب بعيـد، فنظـر نحـوي مبتسـماً، فـردّدت ابتسـامته، وسـمعته يقـول:

- حملت الريح إلينا نباح كلب.
- نعم الصوت تحمله الريح..

ثم عاد فسألني :

- لم ينبح الكلب؟

فقلت:

- لعلّه رأى شيئا.

فعاد يؤكد:

- وأنا رأيتُ شيئا.

وعدت أسأله:

- ما هو؟!

أطبـق الصمـت مـن جديـد، نكّـس رأسـه، احتـواه بـين يديـه، كان يبـدو شـاردا أو يفكّـر في شيء، وعـدت إليّ لأفتـح زجاجـة أخـرى، وأنـا أنصـتُ لمـا يـدور حولنـا، فـلا أسـمع شـيئا، ربمـا فضنـا بالحنـين

الكامـل واشـتعلنا بالعواطـف، وهـدر رحـى الذكريـات، طرقنـا الواقـع بعنـف وتراقـص سراب الأحـلام، وأطـلّ هاجـس المسـتقبل.. ربمـا حـدث ذلـك كلّـه في طرفـة عـين، بـدا ممزوجـا، منصهـرا، تحـت حـرارة نـار الصمـت والخـدر، وهـو رأى شـيئا، أو خيّـل إليـه أنـه رأى شـيئا، وهـو نفـض رأسـه مـن ثقـل مـا ألمّ بـه، وفـرك عينيـه بإبهاميـه، وصـبر عـلى اسـتجماع بعـض الضـوء لـيراني بشـكلي الـذي يـرضى عنـه، وهـو رآني بعـد جهـد منـه وأطيـاف مـن شـعاع القمـر، فهمـس:

– لا تقلق نحن أبعد ما نكون عن يد الشرطة، اشرب ..

لم أبـد لـه رغبتـي في الحديـث، اكتفيـتُ بهـزّ رأسي نذيـر مـن يطلـب الصمـت، فعـاد يتعـثّر بلسـانه:

– لا خـوف منهـم أيضـا، فغايتهـم رجـال الشرطـة والجيـش ومكاننـا آمـن لقربـه مـن المدينـة، وهـم لا يجـرؤون عـلى الوصـول إلى هنـا..

تجشأتُ، وغالبتني ضحكة، وقلت:

– لا يصحّ قتلنا.

فلوّح بزجاجته الفارغة نحو قلب دغل قريب وردّد:

– كما لا يصحّ قطع رأسينا.

ضحكنـا بفـرح طفـولي، بنكهـة روحيـة فاتنـة، بنسـيان لا بدايـة ولا نهايـة، كأننـا لم نكـن بـأي جـرح يُذكـر، كأنّمـا غُسـلنا مـن التفكـير، ليـس ثمّـة مـا ينغـص الصفـو، أو يكـدّر روح الفـرح التـي تلبّسـتنا..

بـلا عمـل.. نعـم هـذا صحيـح، وفي الأربعـين وبـلا زوجـة.. فليكـن.. لكـن الأمـل ليـس عقيـمًا، إلى الحـدّ الـذي أبـكي فيـه.. وأبتسـم وأقـول في سرّي..آآآآآآه... لـو كان لي طفـل مـن صلبـي، رائحتـي التـي تعطّـر الأرض، امـرأة أحبّهـا، امـرأة تعبـق بـأسرار الليـل والفـراش.

كان مجـرّد خاطـر لاح في سـماء الصفـاء، وهـو مـضى يـشرب بصمتـه الممتـدّ وسـمعه المرهـف، وكانـت بي رغبـة للتبـوّل، غـير أنّ جسـدي بـدا لي ثقيـلا، خامـلاً، سـاكنًا، واسـتعرت رغبـة أخـرى لسـؤاله عـن ذلـك الـشيء الـذي رآه، فلـم يقـو لسـاني عـلى النطـق، وهـو كأنمـا حـدس سـؤالي دون أن أتفـوّه بـه، فخـرج عـن صمتـه، تحاملـت وقتهـا عـلى بقايـا راسـب صحـو وقـدرة في إرادتي، ويمّمـت صـوب الخـلاء المفتـوح أتبـوّل، تركـتُ لـه انتباهـي ويقظتـي وسـمعي، وهـو تلعثـم مـن سـكره الطويـل، فوصلتنـي كلماتـه متقطّعـة، متعبـة، واهنـة:

– أعـرف أنـك سـتكذّبني.. هـذا حقّـك، ومـن حقّـي أيضـا أن أقـول لـك.. إنّي رأيـت شـيئا..

***

ورأيته في الصباح..

رأيتـه والشرطـة تطـوّق المـكان، وهـو جثّـة هامـدة، وأكـثر مـن سـؤال يعصـف بي:

– لم قتلته؟!

أيام السعادة

المسـألة المسـتعصية الحـل، وحلمـه الآيـل للسـقوط، وكلـما تقدمـت السـاعات واجـه عـراء الحيـاة، كـما تواجـه الأشـجار حقيقـة الخريـف. في سرّه يقـول: إنّ الحكـم جائـر، وإنّ محاميـه لم يقـم بمـا يجـب القيـام بـه، فهـو لا يعـرف أدنى الأمـور عـن القانـون فضـلا عـن جهلـه بترتيبـات الطـلاق، ومـا ينجـرّ عنـه مـن تعويـض ونفقـة وجـري متصـل متعـب بـين المحاكـم، هـو الـذي عـاش بعيـدا عـن هـذه الأجواء والصراعـات والمشـاحنات، فكيـف انقلبـت الدنيـا كل هـذا الانقـلاب المفاجـئ، وولّـت أيّـام الهنـاء وطيـب العيـش، وأطـل الكـدر والوحشـة ولاحـت ريـح الخصـام ممزّقـة شراع السـعادة، دافعـة حياتـه في هـذا البحـر اللجّـي.

– إلى أين؟..

وهـو لا يـكاد يعـثر عـلى خيـط تبـدأ منـه حقيقـة الحكايـة، فقـد كانـت جرعـات الامتعـاض تتـوالى في حديثهـا إليـه، ضاقـت بحيـاة الأسرة الكبـيرة، وأسرّت لـه في أكـثر مـن مـرة بمـا يختلـج في نفسـها، وهـوّن عليهـا الأمـر بمـا ملـك مـن الحكمـة والهـدوء:

- فلنصبر على ما نحن فيه..

- إلى متى؟..

ويطرق صامتا، متأملا، متسائلا بينه وبين نفسه..

- إلى متى؟..

لا يعـرف كيـف يجيـب، ولا يملـك في يـده مـا ينجيـه مـن حريـق السـؤال، ومعاشـه بالـكاد يسـدّ رمـق الأسرة الكبـيرة، هـو، هـي، الأبنـاء، ووالدتـه، وإخوتـه الخمسـة الذيـن لم يشـتدّ عودهـم بعـد لمواجهـة الحيـاة، أمـل أمّـه المعلّـق عليـه، وحـين يتأمـل أكـثر.. تواجهـه حقيقـة مرضهـا، فيتسـاءل بحرقـة.. هـل تقـوى وهـي بهـذا الوهـن أن تتحمّـل همـوم هـؤلاء؟.

لا منـاص إذن مـن الصـبر، فليصـبر عـلى مـا هـو فيـه، وليكافـح بـكل مـا أُوتي مـن طاقـة وقـدرة، وليدفـع هـذه الحيـاة المشـتركة برويّـة وإيمـان إلى بـرّ النجـاة، وليعـرف كيـف يحافـظ عـلى لمِّ هـذا الشـمل والمصـير الـذي تتشـارك فيـه هـذه النفـوس الكثـيرة، ولـيردّ امتعاضهـا بحنـان وهـدوء وحـبّ، فـلا خيـار لـه غـير مـا تقتضيـه ضرورة الشـهامة والواجـب، فهـو والـد الجميـع وسـندهم، وهـو رجـلُ البيـت الـذي تعـوّل عليـه والدتـه.

لكـن الحيـاة المسـتقرّة مضـت كحلـم في جـوف ليلـة صيفيـة، وهـا هـو الواقـع يرمـي بثقلـه فيهـزّ أرض روحـه، وبقـدر غضبهـا، كانت الغصّـة، تثـور ملعلعـة فتكشـف عـن الوجـه الـذي تـوارى زمنـاً خلـف

قنـاع المحبّـة والرومانسـية، إنـه لا يـكاد يتعـرّف إليهـا في هـذه الثـورات المتتاليـة، كالـبركان الـذي مـا إنْ يهـدأ حتـى يعـاود رمـي حممـه مـن جديـد.

ويقول بحلق ناشف:

– ماذا عساني أن أفعل إنّهم إخوتي.

– وحياتي أنا؟

– نحن نحيا.

– قل إننا نموت...

– مازالـوا صغـارا، ووالـدتي لا قـدرة لهـا وهـي المريضـة عـلى تحمّـل مسـؤوليتهم.

– فما ذنبي أنا؟

ويصمـت مكرهـا، وتصمـت مشـتعلة، ويزفـر في الجـو نذيـر كهربـاء، ويجاهـد بمـا ملـك كي يُخفـي هـذه المشـاحنات عـن والدتـه قـدر مـا يسـتطيع.

لا ذنـب لهـا فيـما تحيـاه، ولا ذنـب لـه في مـوت والـده بعـد أن عـضّ المـرض جسـده، وسـوّمه الألم والعـذاب، ولا ذنـب لوالدتـه، ولا حتـى لإخوتـه، ولا لأطفالـه، لا ذنـب لهـم جميعـا، وليـس ذنبـه أيضـا هـذا المعـاش القليـل الـذي بالـكاد يسـدّ حاجـة هـذه النفـوس.

ولكنهـا لم تصـبر، ضاقـت ذرعـاً بمـا تصطخـب بـه الحيـاة، ضيـق المسـكن، الطلبـات الكثـيرة، غياباتـه الطويلـة عـن البيـت، إهمالـه لأطفالـه في سـبيل والدتـه وإخوتـه، الحنـان الـذي راح يخفـت مـع

الوقـت تجاههـا، تراجـع دورهـا كسـيّدة بيـت إلى أضيـق الحـدود، وكان عليهـا أن تخـرج عـن صمتهـا، فخرجـت:

– فكّر لنا في مسكن مستقل.

– اليد قصيرة، وأنتِ ترين الحال..

– نستطيع أن نخرج مما نحن فيه.

وفي روح حديثهـما يـدرك مـا ترمـي إليـه، ليسـت هنـاك إلا فكـرة واحـدة تسـتأثر بعقلهـا وتتملّـك روحهـا، وهـو تسـاءل بقلـق... مـن أيـن تسرّبـت إليهـا مثـل هـذه الفكـرة؟ وكيـف زُرعـت في أرض روحهـا؟ وكيـف آمنـت بهـا إلى هـذا الحـدّ؟.

بـدأ بينـه وبـين نفسـه يراجـع حركـة حياتهـا، علاقاتهـا بنسـاء الجـيران، وتسـاءل بحـيرة... أيكـون وراء طلب الاسـتقلال ببيتهـا والدتها؟ أو إحـدى أخواتهـا؟. لا يمكـن أن يجـري الأمـر بالمصادفـة البحتـة، إنّ كل أمـر وكل فكـرة في الحيـاة تخضـع لهـذا النمـوّ العجيـب، وفكرتهـا بدأت بالامتعـاض والتـبرّم، وراحـت تكـبر شـيئاً فشـيئاً، وهـا هـي الشـجرة تثمـر أخـيرا بحـصرم الطـلاق، وهـا هـو يواجـه مـرارة الطعـم وثقـل الحقيقـة وجـو المحاكـم الخانـق، وتكاليـف المحكمـة والمحامـي وتراكـم النفقـات.

محـال أن تكـون هـي، كيـف يتقلّـب الإنسـان؟ وكيـف يتقلّـب قلبـه؟ وأيـن هـو وجـه الأيـام الخـوالي، ومسـحة الحـبّ والتراحـم واللحمـة الواحـدة؟. غـاص كل شيء في قلـق أعمـى، ونـزف كل شيء، والمحامـي يقـول:

– لا أمل...

– ألا يمكن أن نطعن في القرار؟

– سنرى..

وفي الانتظـار واللهفـة والترقّـب، يُخفـي غيابهـا عـن والدتـه، يقـدم حججـه بتوجّـس:

– سترتاح قليلا يا أمي...

وتسأله باطمئنان:

– متى ستعود؟!

لا يمكـن لـه أن يجـزم بتاريـخ العـودة، في سرّه يقـول: لا عـودة، النهايـة التـي كتبتهـا في صفحـة حياتهـا معـه، وعليـه أن يحتـاط في إخفـاء كل شيء عـن والدتـه، وعـن أبنائـه، وعـن إخوتـه، وأن يوطـن النفـس عـلى الجلـد، ويحـثّ عقلـه عـلى التفكـير العميـق، وعـلى الوقـت أن يكـون معـه لا ضـده، وهـو يختـلي بنفسـه في المقهـى عنـد كل مسـاء، يحـاور روحـه وعقلـه، يحـنّ إليهـا، إلى الحـبّ، ويتأمـل خضّـة الضيـاع في وجـوه أبنائـه، فتدمـع عيناه.. هـذا الجـرح العقيـم في نفسـه، وهـذا النـزف الحـادّ في روحـه، وهـذا التوتـر القاتـل في حياتـه، ولا أحـد يقاسـمه ثقـل هـذا العـبء، أو يحمـل عنـه بعضـاً مـن تعـب هـذه الحـيرة. وهـي تُـسرف في الغيـاب، وتخـيّره بـين بيـت مسـتقل أو ورقـة طـلاق، ومحاميـه يطالبـه بمـا تبقّـى مـن أعبـاء قضيتـه، ووالدتـه تسـأله مـا نَقُـصَ مـن حاجـات البيـت، وعليـه أن يفكّـر فـوق هـذا في

الآتي... نفقـة الأبنـاء، ونفقـة بيتهـا الجديـد، وفـوق هـذا وذاك، عليـه أن يجـد مدخـلاً للحديـث مـع والدتـه، طريقـاً يسـيرة يُـشْرِعُ فيهـا قلبـه عـلى مصراعيـه، ويدلـق كل هـذه الحقيقـة التـي تعذّبـه.

تخيّـل الوقـت سربـا مـن عصافـير يطـير مـن عـلى سـلك، تأمـل وجـه الحـبّ بعبقـه واندفاعـه، تمثّلـت لـه صورتهـا وهـي تـذرع غرفتـه بالحنـين، رأى منهـا ابتسـامتها الثريـة واسـتمتع بتفاصيـل قدّهـا النـاري واستنشـق خبايـا عطرهـا الـسرّي وتلمّـس جمـوح شـعرها الأسـود في بلّلـه وذاق حـلاوة مشمشـها في قلـب الصيـف.

انحـدر إلى مـرج الخيـال الخصيـب وهـو يقتعـد كـرسيّ المقهـى، وحيـدا يجـترّ مـا كان بينهـما، نكهـة الصـوت وهـي تتـسرّب كالمـاء في تربـة روحـه:

- أحمد الله الذي جمعني بكَ.

يبتسم بفرح طفولي ويهمس:

- أحبكِ

يكتمـل اشـتعالهما بالنجـوى، ويثـار في جـو الغرفـة تيـار دافـئ، يستسـلم الضـوء لرغبـة الظلمـة، مثلـما استسـلم حبّـه وبيتـه لظلمـة واقعـه الكريـه، وعـلا صـوت الرفـض عـلى مـا دونـه:

- ليس بمقدوري أن أستمر...

- فلنصبر، فصبرنا مفتاح فرجنا.

وتصمـتُ عـلى طـرف الخـط الآخـر، تلـوذ بالسـكينة التـي تعـوّدت أن تلـوذ بهـا كلـما كانـت تحـدثُ مشـاحنة بينهـما أيـام

زواجهـما الأولى، لكنـه يحثّهـا عـلى قـول أي شيء:

- قولي شيئا...لم الصمت؟... هل يرضيكِ هذا الخراب؟.
- وهل ترضيكَ حياتي؟
- ليس من أجلي بل من أجل أطفالنا.
- أطفالي معي.

لا أمـل، كمـن يشـقّ نفقـا في غياهـب الأرض فتواجهـه صخـرة صـمّاء قاسـية، فليستسـلم للريـح كريشـة مـن جنـاح طائـر، ولـيرض بوجـه الحقيقـة الكريـه، وليكشـف كل أوراقـه...

وسـار عـلى غـير هـدى حتـى تـلاشى شـبحا في الظـلام، وارتفـع صوتـه بالغنـاء.

ند

اجتمعنا الثلاثة كما لم نجتمع قبلا، كان المكان قصيا بلغناه بعد مشقّة سنوات طويلة من السير.

توسّطت الحلقة، فقد كان مقضيا أن تكون جلستي بتلك الطريقة، أومأ لي الضابط أن أبدأ الحديث، فقلت:

– الحقيقة أنني لا أدري ما الذي تريده سيّدي الضابط على وجه الدّقة.

نظر نحوي بهدوء، وقال:

– سلْ المجنون، فلعلّه أدرك ما أرمي إليه.

استدرتُ إلى المجنون، فوجدته يغطّ في نوم عميق:

– إنّه نائم..

– فلم لم ينم طيلة تلك السنوات؟

كان يقوم بواجباته في الطبيعة، يضرم نارا هنا، ويعصف بشيء هناك ..

– وأين كنت في خلال ذلك؟..

– يشهد الله كم زجرته حتى ضاق ذرعا بي.

– ملفك بين يديّ يفنّد ما قلته اللحظة..

– وما وجه الإدانة التي ستواجهه بها؟..

– بـل أواجهـك بهـا، لقـد تركتـه بـلا رقيـب، فعـل الأفاعيـل، أضرم النـار في بيـوت كانـت هانئـة، عصـف بعذريـة الحيـاة، أصبـغ عـلى وجـه النهـار رمـاد الليـالي الحـزانى، كـسر آنيـة الزهـر الرخاميـة، أطلـق نباحـه مشـتّتا هـدوء الليـالي المقمـرة، مـضى لا يلـوي عـلى شيء.

– لقد زجرته وأحكمت وثاقه سيّدي الضابط.. غير أنه....

– غير أنه كان أقوى منك، هذا ما تريد قوله...

– لم تدرّبنـي التدريـب الكامـل في مواجهتـه، فخـسرتُ في سـبيله كل شيء..

– لأنك ما نفّذت أمرا واحدا ممّا أوحيت لك به..

– فلم لم تزجره أنت؟..

– وهـل كان سيسـمعني وأنـت تحـول بيننـا كاللجـة بـين القشّـة والغريق؟..

– انظر إليه كيف خلد إلى نومة لذيذة.

مـدّ رأسـه مـن وراء ظهـري، ورمـق المجنـون بنظـرة عتـاب، وهمـس في أذني:

– الأجدر أن لا نفترق بعد اليوم.

الفهرس

تنويه	05
طائر بلا روح	07
بقلم الرّصاص	15
السّجن	21
العصافير والسّلك	27
أنا تحت الشّجرة	33
أوراق وقت مضى	43
الليل	51
التّجربة	57
خيانة	63
حفلة الرّيح	67
العنكبوت	75
ورقة	83
القاتل	89
في البحث عنها	97
الجناح والباب	103
الشبح والجثّة	107
أيّام السّعادة	115
ندم	125